إبراهيم بن المهدى

الشاعر الأديب الفنان

د. محمد عارف محمود حسين

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين : سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه ، ومن تبعهم ـ باحسان ـ الى يوم الدين .

وبعد ...

فهذه صفحات نحمل بين ثناياها حديثا عن علم من أعلام الأدب والشعر والفن فى عصر بنى العباس الأول ، كانت له دولة فى هذه العوالم الثلاث : فكان شاعرا ، ناثرا ، فنانا (مغنيا وملحنا) طالما أمتع معاصريه بحسن غنائه وجميل ألحانه ، كما أمتعهم وأمتع من جاء بعدهم بروعة شعره وبديع نثره .. فضلا عن أنه كان واحدا من أبناء بيت الخلافة العباسية ، بل لم ير فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه ولا أشعر .. ذلكم هو ابراهيم بن المهدى العباسى .

وقد تعرضت فى هذه الصفحات لجوانب من حياة هذا الشاعر الأديب الفنان ، وألقيت الضوء على معالمها ، وعما ألم به فيها من أحداث كما تعرضت لجوانب شخصيته ونواحى نفسيته ، وما يتمتع به من صفات ، وما منح من مواهب وملكات ، متخلصا من هذا الى الحديث عن جوانب مواهبه المتعددة ، فعرضت له فنانا ، مبينا ما كان يتمتع به من موهبة خصبة وملكة باهرة فى عالمى الغناء والتلحين ، ثم عرضت له

مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الثامن، مطبعة الأمانة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م

شاعرا ، مبينا ـ أيضا ـ منزلته الشعرية ، وعارضا لألوان الشعر وفنونه عنده ، من مديح وهجاء واعتذار ، وغزل ووصف ورثاء وحكمة، وعرضت له ناثرا ، مبينا ـ كذلك ـ ما أوتى من ملكة البيان والقدرة على الانشاء ، مستشهدا على ملكته فى النثر بنماذج منه مختلفة من استعطاف واخوانيات ومحاورة .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى الكشف عن هذه الشخصية المتفردة، من هذه الجوانب التى تناولته من خلالها ، ولا أزعم أننى كتبت كل ما يمكن أن يكتب عن ابراهيم بن المهدى ، بل أقول : ان الحديث عنه لم يكتمل بعد ، وأرجو أن أوفق أو يوفق غيرى الى المزيد من البحث والدراسة عن هذا الشاعر الأديب الفنان .

ولا يسعنى فى النهاية الا أن أدعو الله ـ مخلصا ـ أن يتقبل هذا الجهد ، وأن يجعله خالصا له وحده ، وأن يتجاوز عنى ان كنت قصرت أو أخطأت « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا » ، وهو ـ سبحانه ـ حسبنا ونعم الوكيل .

د/ محمد عارف محمود حسين

(١)

نسب وحيـــاة :

هو للأمير الشاعر ، والكاتب الناثر ، والمغنى الباهر ، والموسيقى المـــاهر : ابراهيم بن المهدى العباسى .

وهو أبو اسحاق : ابراهيم بن الخليفة محمد المهـــدى بن الخليفة عبـــد الله المنصـــور بن محمـــد بن على بن عبـــد الله بن العبـــاس بن عبد المطلب الهاشمى(١) .

تحدر فى أمومته من بيئة أعجمية : من أصل ديلمى ، فقد كانت أمه « شـــكلة » ـــ بفتح الشين وكسرها وســـكون اللام(٢) ـــ موادة ، كان أبوها ـــ ويدعى « شاه أفرند » ـــ من أصحاب « المازيار » ، فقتل مع « المازيار » ، وسبيت بنته « شـــكلة » وحملت الى المنصـــور ، فوهبها لـــ « محياة » أم ولده ، فتعهدتها وعنيت بتربيتها ، وتخيرت لها الطائف بيئة عربية نقية،لتتدرج فى ظل الحياة الصافية والفطرة العربية الأصيلة، وهناك نشأت وتفصحت وأشربت اللغـــة العربية الفصـــحى فى منطقها السليم ومهدها العريق .

ولما استيقنت « محيـــاة» من زوال عجمـــة « شـــكلة » بل من فصاحتها ، استعادتها الى بغـــداد ، فرآها المهدى ، فنالت اعجـــابه ، فطلبها من « محياة » فأعطته اياها وضمها الى خاصته ، فكانت أم ولده « ابراهيم »(٣) الذى كان مثلها حالك السواد ، بل كثيرا ما كان ينسب

---

(١) الفهرست : ١٢٨ ، وفيات الأعيان : ١/٣٩ ، الأعلام : ١/٥٩
(٢) وفيات الأعيان : ١/٣٩ .
(٣) الأغانى (دار الثقافة بيروت) : ١٠/١٠١ ، أعلام النساء : ٢/٣٠٢ .

اليها ، فيقال له « ابن شكلة »(٤) .

قالت « شكلة » الشعر ، ومن شعرها الذى يدل على نشأتها العربية ، قولها فى أخ كان لها يقال له (أحمد) .

أحمد(٥) تفديه شباب فهر
من كل ما ريب وأمر نكر
قد جاء مثل الشمس غب قطر
فى حسن بدر واعتدال صدر
بنى أحشائى وذخر ذخرى
شد الهى بأبيك ظهرى
وزاده رب العلا من عمرى
وذب عنه خائفات الدهر
وعندك ما أدرى وما لا أدرى

ولد ابراهيم بن المهدى فى غرة ذى القعدة سنة اثنتين وستين ومائة(٦) ببغداد(٧) . « وما كاد ابراهيم يبلغ سن الفتوة من عمره ، حتى ساءت العلاقة بينه وبين أخيه هارون الرشيد ، وكان ابراهيم أصغر اخوته ، وذلك على أثر منافسة بينهما على الاقتران بابنة عيسى بن على بن العباسى ، وقد لقى ابراهيم من سوء معاملة الرشيد واضطهاده له ،

---

(٤) من الضائع من معجم المرزبانى : ١٣ ، تاريخ بغداد : ١٤٢/٦ الأعلام : ٥٩/١ .

(٥) أشعار أولاد الخلفاء (من كتاب الأوراق) : ١٧ .

(٦) أشعار أولاد الخلفاء : ١٨ ، وفيات الأعيان : ٤١ .

(٧) الأعلام : ٥٩/١ .

ما زهده فى النساء وصرفه عن الزواج • وظلت صلته بأخيه الرشيد عرضة للجزر والمد وللجفوة والصفاء آمادا طويلة بينهما »(٨) •

ولكن هذه الجفوة تذهب ، وهذا العداء ينقشع ، ويعود الود والتعاطف يربط بينهما ، ويرضى الرشيد عن أخيه ابراهيم ، ويقلده امرة جند « دمشق » ويمنحه أربعين ألف دينار ، ومرتبا سنويا يقرب من ذلك ، وكان ابراهيم اذ ذاك لا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وقد لبث فى ولايته هذه عامين ، ثم عزله الرشيد ، وتكرر أمر العزل والولاية على دمشق ، حتى أمضى فى ولايته الثالثة عليها مدى أربع سنوات ، عاد بعدها الى بغداد ، وهو فى عنفوان شبابه ، وكانت الحوادث التى مر بها أكسبته خبرة واسعة بتصاريف الأيام •

ويمضى عهد الرشيد ، وتنطفىء نار الفتنة التى نشبت بعده بين ولديه الأمين والمأمون ، الذى ما كاد يستقر له الأمر ، حتى تجددت الجفوة وأصبحت على أشدها بينه وبين عمه ابراهيم بن المهدى •

وكان سبب هذه الجفوة ، بل ذلك العداء ، هو ما كان من مبايعة أهل بغداد ابراهيم بن المهدى والمناداة به خليفة للمسلمين ، بدلا من المأمون الذى خلعوه ، بسبب ما كان منه من جعل ولاية العهد لعلى بن موسى الرضا ، وأمره بخلع الملابس السوداء شعار العباسيين وارتداء الملابس الخضراء شعار الهاشميين ، وتغيير الأعلام كذلك ، الأمر الذى شق على العباسيين ببغداد ، خوفا من انتقال الأمر عنهم الى العلويين، مما جعلهم يبايعون ابراهيم بن المهدى ، ويلقبونه « المبارك » وقيل « المرضى » وكانت مبايعته يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذى الحجة سنة احدى ومائتين وكانت سنه يوم بويع له تسعا وثلاثين سنة وشهرين وخمسة أيام(٩) ببغداد ، بايعه العباسيون فى الباطن ، ثم بايعه أهل

---

(٨) اسحاق الموصلى : ٩٧ •

(٩) تاريخ بغداد : ١٤٣/٦ •

بغداد فى أول يوم من المحرم سنة اثنتين ومائتين(١٠) وكانت الفرصة مهيأة ليصبح ابراهيم أميرا للمؤمنين غير منازع ، وتبايعه الأقاليم ، والأمصار ، لولا أن ميزان الاقتصاد مال به عن المستوى ، وأعجزته الظروف المالية الأليمة ، والأزمات الساحقة عن الوفاء برواتب الجند وعطايا الأشياع ، فنفرت القلوب من حوله ، وبدأت السخرية تلاحقه . روى أبو الفرج الأصفهانى قال « بويع ابراهيم بن المهدى ببغداد ، وقد قل المال عنده ، وكان قد لجأ اليه أعراب من أعراب السواد وغيرهم من أوغاد الناس ، فاحتبس عليهم العطاء ، فجعل ابراهيم يسوفهم بالمال ولا يرون له حقيقة ، الى أن خرج اليهم رسوله يوما ، وقد اجتمعوا وضجوا ، فصرح لهم بأنه لا مال عنده ، فقال قوم من غوغاء أهل بغداد : أخرجوا الينا خليفتنا ليغنى لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، فتكون عطاء لهم »(١١) بل لقد استخدمت اغة الفن فى معانى السخرية والهجاء ، فقال فيه « دعبل » بن على الخزاعى :

يا معشر (١٢) الأجناد لا تقنطوا
وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون « حنينية »(١٣)
يلتذها الأمرد والاسمط
« والمعبديات » (١٤) لقوادكم
لا تدخل الكيس ولا تربط

---

(١٠) تاريخ الطبرى : ٨/٥٥٧ ، وفيات الأعيان : ١/١٩ ، والمعارف : ٣٨٨ .

(١١) الأغانى (دار الثقافة . بيروت) : ٢٠/١٠٣ ـ ١٠٤ .

(١٢) السابق : ١٠٤ ، تاريخ بغداد : ٦/١٤٤ (مع اختلاف فى بعض الألفاظ) .

(١٣) حنينية : نسبة الى « حنين » الحيرى المغنى الأموى المشهور .

(١٤) المعبديات : نسبة الى « معبد » المغنى الأموى المشهور .

وهـــكذا يـــرزق قـــواده
خليفـــة مصـــحفه البربط (١٥)

وقد دامت خلافة ابراهيم بن المهـدى سنتين الا خمسة وعشرين يوما (٢٠٢ ــ ٢٠٤هـ) قضاها فى اخماد الفتن والثورات ، وكان عهده بالخلافة كله عهد اضطرابات وأحداث وحروب ، فى سبيل الاحتفـاظ بها ، يرتفع فيها حظه تارة وينخفض أخـرى فى المنافسة بينـه وبين المأمون ، مما كبد البلاد تحمل أزمات ومحن ضارية ، ومازالت الأحداث بابراهيم تجرى على هذا النحو ، حتى جاء اليوم الذى انفض فيه عنه أنصاره ، وتآمر عليه أقرب الناس اليه ، ورأى نفسه يوما وقد خسر المعركة ، فراح يفر من قصر « الرصـافة » الى خارج بغداد ، ويختفى فى دور الأصدقاء متنقلا بينها فى ظلمة الليل ، وذلك حين علم بتوجـه المأمون من خراسان الى بغداد ، فخاف على نفسه ، فاستخفى ، وكان استخفاؤه ليلـة الأربعـاء لثلاث عشرة ليلـة بقيت من ذى الحجـة سنة ثلاث ومائتين(١٦) ، وكانت سنه آنذاك احدى وأربعين سنة وشهرا وأياما(١٧) ، ولما استخفى ابراهيم عمل فيه « دعبل » هذه الأبيات :

نفر(١٨) ابن شـكلة بالعراق وأهله
فهفـا اليـه كل أطيش مـائق

---

(١٥) البربط : لفظ فارسى ، ومعنـاه « العود » الآلة الموسـيقية المعروفة .

(١٦) وفيات الأعيان : ١/٤٠ .

(١٧) تاريخ بغداد : ٦/١٤٣ .

(١٨) وفيات الأعيان : ١/٤٠ ، أشـعار أولاد الخلفـاء : ٣٣ (مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ) .

ان كان ابراهيم مضطلعا بهـا
فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعد ذاك لزازل
ولتصلحن وراثة للمارق (١٩)
أنى يكون وليس ذاك بكائن
يرث الخلافة فاسق عن فاسق

وقد بحث عنه المأمون وسلط عليه العيون ، حتى التجأ أخيرا الى «شكلة» أم ابراهيم يسألها عن مقر ابنها متوعدا ومنذرا فأرسلت اليه : « يا أمير المؤمنين ، أنا أم من أمهانك فان كان ابنى عصى الله عز وجل فيك ، فلا تعص الله فى »(٢٠) .

وبعد بحث وتنقيب عن ابراهيم من قبل المأمون ، يؤخذ ابراهيم ، وهو منتقب بين امرأتين فى زى امرأة ، ويحمل الى دار المأمون فيأمر أن يقعد على هيئته الى غد ، ليراه بنو هاشم والقواد والجند ، وكان ذلك فى ثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ٢١٠هـ ليلا . وقد صبروا المقنعة التى كان منتقبا بها فى عنقه ، والملحفة فى صدره ليراه الناس ، كيف أخذ ، ثم حول الى منزل أحمد بن أبى خالد فحبس عنده ، وبقى الى أن دخل « المأمون » بـ « بوران »(٢١) بـ « فم الصلح »(٢٢) فأمر بحمل ابراهيم بن المهدى خلفه ، فلما كان فى الليلة

---

(١٩) مخارق وزلزل والمارق من مشاهير المغنين فى العصر العباسى (وفيات الأعيان : ١/٤٠) .

(٢٠) وفيات الأعيان : ١/٣٨٧ .

(٢١) بوران : هى بوران بنت الحسن بن سهل ، زوجة المأمون العباسى ، من أكمل النساء أدبا وأخلاقا ، اسمها خديجة وعرفت ببوران توفيت ببغداد سنة ٢٧١هـ (الأعلام : ٢/٧٧) .

(٢٢) فم الصلح : مدينة بناها الحسن بن سهل على دجلة (قطب =

التى دخل المأمون على « بوران » فيها ، طلبت اليه « بوران » أن يعفو ويرضى عن ابراهيم ، فيجيبها الى طلبها ويعفو عنه ، فلما كان من الغد دعا ابراهيم فلما دخل عليه ، قال : هيه يا ابراهيم ، فقال : « يا أمير المؤمنين ولى الثأر محكم فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك ، فان تعاقب فبحقك ، وان تعف فبفضلك » قال : بلى أعفو يا ابراهيم ، فكبر وسجد ورفع رأسه قائلا يمدح المأمون فى قصيدة طويلة منها :

يا خير من ذملت اليه مطية
بعد الرسول لآيس أو طامع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله
عفو ولم يشفع اليك بشافع
فرحمت أطفالا كأفراخ القطا
وعويل عانسة كقوس النازع
الله يعلم ما أقول فانها
جهد الألية من حنيف راكع
ما ان عصيتك والغواة تمدنى
أسبابها الا بنية طائع
ان الذى قسم الخلافة حازها
فى صلب آدم للامام السابع(٢٣)

السرور : ٤٠٤) ، نهر كبير فوق واسط ، فيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون (معجم البلدان : ٤/٢٧٦) .

(٢٣) الخبر والشعر فى : وفيات الأعيان:١/٣٨٦ ـ ٣٨٧ : وانظر هذه الأبيات مع أبيات أخرى فى : أشعار أولاد الخلفاء : ١٩ ـ ٢٠ والزهرة : ٢/٥٦٥ ـ ٥٦٦ والأغانى : ١٠/١٢٣ ـ ١٢٤ مع أبيات أخرى

وقيل ان المأمون لما ظفر بابراهيم بن المهدى ، استشار أصحابه، فكلهم أشار بقتله الا الحسن بن سهل ، قال : ان قتلته فعلت ما فعله الناس قبلك ، وان عفوت عنه تفردت بمكرمة لم يأتها أحد قبلك ، قال : فانى أختار هذا ، وعفا(٢٤) .

ويقال : ان ابراهيم لما أنهى كلمته أمام المأمون التى ذكرناها آنفا والتى ختمها بقوله : فان تأخذ فبحقك وان تعف فبفضلك ، أتبعها بهذا الشعر :

ذنبى اليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا فاصفح بفضلك عنه
ان لم أكن فى فعالى من الكرام فكنه

فقال المأمون : « القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وعفو الله بينهما ، وهو أكبر ما يحاول ، يا ابراهيم لقد حببت الى العفو حتى خفت ألا أوجر عليه ، لا تثريب عليك ، يغفر الله لك ، وعفا عنه وأمر برد ماله وضياعه ، فقال ابراهيم :

رددت مالى ولم تبخل على به
وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
فأبت منك وما كافأتها بيد
هما الحياتان : من وفر ومن عدم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى
مقام شاهد عدل غير متهم
فلو بذات دمى أبغى رضاك به
والمال حتى أسل النعل من قدمى

---

(٢٤) المختار من قطب السرور : ٤٠٤ .

ما كان ذاك سوى عارية رجعت
اليك لو لم تهبها كنت ام تلم(٢٥)

وبذاك العفو وبهذا الرضا عاد ابراهيم الى مجلس المأمون عزيزا مكرما ، فنادمه المأمون ولاطفه ، ثم طلب اليه أن يغنى ، فاعتذر بأنه نذر لله نبذ الغناء عند خلاصه ، فألح عليه وأمر بوضع العود فى حجره فغنى :

ذهبت(٢٦) من الدنيا وقد ذهبت عنى
لوى الدهر بى عنها وولى بها عنى
فان أبك نفسى أبك نفسا عزيزة
وان أحترقها أحترقها على ضن
عدوت على نفسى فعاد بعفوه
على فعاد العفو منا على من

فقال له المأمون : أحسنت وأجازه بعشرة آلاف دينار .

وظل ابراهيم يحظى من الخليفة بالود والتكريم، وينال المكانة السامية والمنزل الجليل بمنادمته للخليفة ومجالسته ، وباعجاب الخليفة بشعره وغنائه الى أن توفى المأمون ، ثم حظى بعد ذلك بهذه المكانة وتلك المنزلة فى عهد ابن أخيه الخليفة المعتصم ، وظل كذلك حتى توفى ابراهيم فى يوم الجمعة لتسع خلون من شهر رمضان سنع أربع وعشرين ومائتين بسرمن رأى(٢٧) وقيل انه توفى فى أول سنة أربع وعشرين ومائتين(٢٨)

---

(٢٥) أمالى القالى : ١/١٩٩ ـ ٢٠٠ .
(٢٦) اسحاق الموصلى : ١٠٢ .
(٢٧) وفيات الأعيان : ١/٤١ .
(٢٨) أشعار أولاد الخلفاء : ١٨ .

وقيل فى آخر سنة ثلاث وعشرين ومائتين(٢٩) .

ولما توفى ركب المعتصم وصلى الله وكبر خمسا ، وانصرف قبل أن يدلى فى قبره ، وتقدم الى هارون الواثق أن يتولى ذلك(٣٠) .

— ٢ —

صفات وملكات :

لعلنا نستطيع — من خلال ما روته كتب التراجم والأدب والتاريخ — أن نعطى القارىء صورة عن ملامح ابراهيم بن المهدى الجسمية وسماته الشخصية وملكاته النفسية التى اتسم بها ، وصارت المعالم الواضحة لشخصيته ، والأمارات الدالة عليه .

كان ابراهيم — من الناحية الجسمية — أسود حالك السواد ، عظيم الجثة(٣١) ، غليظ الشفة ، حسن العين ، حسن الأنف(٣٢) .

أما الجوانب الأخلاقية التى اتسم بها ابراهيم فكثيرة ، فقد كان ابراهيم فاضلا ، متصرفا ، مقدما فى قومه وعلمه ودينه(٣٣) ، وكان وافر الفضل ، غزير الأدب ، واسع النفس ، سخى الكف(٣٤) ، داهيا عاقلا(٣٥) .

---

(٢٩) المصدر السابق ، الصفحة نفسها ، من الضائع من معجم الوزبانى : ١٣ .

(٣٠) أشعار أولاد الخلفاء : ٤٩ .

(٣١) الفهرست : ١٢٨ .

(٣٢) أشعار أولاد الخلفاء : ٤٦ .

(٣٣) جمهرة أنساب العرب : ٤٢ .

(٣٤) تاريخ بغداد : ٦/١٤٤ .

(٣٥) العقد الفريد : ٦/٣٦ .

وكان ابراهيم ــ بجانب هذه الشيم وتلك الأخلاق ــ ذا ملكات متنوعة ، ومواهب متعددة ، أتاحت له أن يتصرف ــ بحذق ومهارة ــ فى كثير من ألوان الفنون والمعارف ، التى أكسبته مكانة مرموقة وأنزلته المقام الكريم بين الناس ، فضلا عن الأمراء والخلفاء ، وبخاصة أخاه الخليفة هارون الرشيد ، وأولاده الخلفاء : الأمين والمأمون والمعتصم.. فكان شاعرا حاذقا ، وناثرا بارعا ، وخطيبا مفوها ومجادلا قويا ، وراوية للشعر ، وعالما بأيام العرب ، عرف بجزالة الرأى ، والتصرف فى الفقه واللغة وأبواب الأدب والفنون والعلوم المختلفة ..(٣٦) كما كان صاحب مؤلفات وتصانيف(٣٧) .

وبجانب هــذا الثراء المتعدد فى ملكــاته ومواهبه ، كان ابراهيم متمسنما لذروة فنين شهيرين فى عصره ، هما فنا الموسيقا والغنــاء ، لدرجة جعلت هذين الفنين يطغيان شهرة على ملكاته الفنية الأخــرى بحيث أصبح لا يتميز الا بهما ، ولا ينتسب الا اليهمــا ، على الرغم من فضله ومكانته فى الشعر والنثر .

ومن أجل ذلك جعله ابن النديم أول نابغ نبغ من بنى العباس ، ثم من أولاد الخلفاء ، وقال فيه : لم ير فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه ولا أشعر ، وله مع ذلك صنعة فى الغناء يتقدم فيها كل أحد(٣٨) .

ولعل الجانب الذى يعنى به الدرس الأدبى من هذه الجــوانب المتعددة ، هو الجانب الأدبى شعرا ونثرا لأنه مجاله وميدانه ، وان كان

---

(٣٦) الأغانى : ١٠/١٠١ ، ١٠٣ .

(٣٧) ذكر له ابن النــديم فى « الفهرست » كتبــا أربعــة هى : كتــاب أدب ابراهيم ، كتــاب الطبيخ ، كتــاب الطيب ، كتاب الغنــاء (الفهرست : ١٢٨) .

(٣٨) الفهرست : ١٢٨ .

ذلك لا يمنع أن نلم ــ بايجاز ــ بالجانب الفنى عند ابراهيم بن المهدى ، وهو جانب الموسيقا والغناء ، وذلك اكتمالا للصورة ، وابرازا لجانب هام من الجوانب الفنية عنده ، ونظرا لوجازة الحديث فى هذا الجانب ، سنبدأ الكلام عنه،ثم نثنى بالحديث عن الجانب الأدبى عنده •

ــ ٣ ــ

ابراهيم بن المهدى والفن :

كان ابراهيم من أحذق الناس بفنون الموسيقا علما وأداء ، وأخبرهم بالأنغام والأوتار والايقاع ، وأطبعهم بالغناء ، وكان ذا منزلة ممتازة فى جمال الصوت وحدته ، حتى عد فى طليعة الطبقة الأولى من أعلام الغناء فى العصر الذهبى العباسى ، وهو فوق ذلك يجيد العزف بالآلات الوترية والنفخ بالمزامير والضرب بالدفوف(٣٩) •

هذه المكانة العالية فى فنى الموسيقا والغناء دلل عليها وأشار اليها أمران : أولا : شهادة النقاد والعلماء والمتخصصين فى هذين الفنين بأصالة ابراهيم وحذقه وبراعته فيهما ، وثانيا : اعجاب الناس الذين عاصروه وسمعوه ببراعته واتقانه فى هذا الباب ، الى درجة بلغ فيها حد النضج الفنى والاكتمال الأدائى •

فها هو ذا اسحاق الموصلى ــ قرين ابراهيم وندّه ــ يقول عنه : « ما ولد العباس بن عبد المطلب بعد عبد الله بن العباس ، رجلا أفضل من ابراهيم بن المهدى ، فقيل له : مع ما تبذل له من الغناء ؟ فقال : وهل تم فضله الا بذلك »(٤٠) •

---

(٣٩) اسحاق الموصلى : ١٠٥ •

(٤٠) الأغانى : ١٠/١٠١ •

وكان « مخارق » ــ أحد المغنين المشهورين والمعاصرين لابراهيم ــ يفضله على نفسه ، يقول مخارق : « كان ابراهيم الموصلي أحسن غناء من ابن جامع بعشر طبقات ، وأنا أحسن غناء من ابراهيم الموصلي بعشر طبقات ، وابراهيم بن المهدى أحسن غناء مني بعشر طبقات ، ويقول : أحسن الناس غناء أحسنهم صوتا وابراهيم بن المهدى أحسن الجن والانس والوحش والطير صوتا »(٤١) .

وكان معاصروه والمستمعون لغنائه يشهدون له بالتفوق والابداع في فنه ، والاستحواذ على عواطف الناس ومشاعرهم ، حينما كان يطربهم بما يلقيه عليهم من لحن وغناء ؛ فها هو ذا محمد بن موسى المنجم يقول : « حكمت أن ابراهيم بن المهدى أحسن الناس كلهم غناء ببرهان ، وذلك أني كنت أراه بمجالس الخلفاء مثل المأمون والمعتصم ، يغني المغنون ويغني ، فاذا ابتدأ الصوت لم يبق من الغلمان والمتصرفين في الخدمة وأصحاب الصناعات والمهن الصغار والكبار أحد الا ترك ما في يده ، وقرب من أقرب موضع يمكنه أن يسمعه ، فلا يزال مصغيا اليه لاهيا عما كان فيه مادام يغني ، حتى اذا أمسك وتغنى غيره رجعوا الى التشاغل بما كانوا فيه ولم يلتفتوا الى ما يسمعون . ولا برهان أقوى من هذا في مثل هذا من شهادة الفطن له واتفاق الطبائع ــ مع اختلافها وتشعب طرقها ــ على الميل اليه والانقياد له »(٤٢) .

وقد غالى بعض الرواة في وصف جمال صوت ابراهيم ، حتى قال فيه ابن أبي ظبية : « كنت أسمع ابراهيم بن المهدى يتنحنح فأطرب ! »(٤٣) .

---

(٤١) الأغاني : ١٠/١٤٠ .
(٤٢) السابق : ١٠/١٤٨ .
(٤٣) السابق : ١٠/١١٤ .

ويؤكد أخوه منصور بن المهدى هذه المغالاة فى وصف جمال صوت أخيه وعذوبته، حين يقول: «كان اذا ابتدأ يغنى أصغت الوحش اليه ومدت أعناقها ، ولم نزل تدنو منا ، حتى تكاد أن تضع رؤوسها على الدكان الذى كنا عليه ، فاذا سكت نفرت وبعدت عنا حتى تنتهى الى أبعد غاية يمكنها التباعد فيها عنا »(٤٤) .

وروى عن أخته أسماء بنت المهدى أنها قالت : « قلت لأخى ابراهيم : يا أخى أشتهى والله أن أسمع من غنائك شيئا ، فقال : اذا والله يا أختى لا تسمعين مثله ، على وعلى — وغلظ فى اليمين — ان لم يكن ابليس ظهر لى وعلمنى النقر والنغم وصافحنى ، وقال لى : اذهب فأنت منى وأنا منك »(٤٥) .

واذا كان المعاصرون لابراهيم بن المهدى الذين استمتعوا بفنه ، قد شهدوا له بالتفوق والتبريز فى اللحن والغناء ، فان كثيرا من المؤرخين الذين جاءوا من بعده ، قد شاركوا المتقدمين التقدير لفن ابراهيم والاعجاب به ، فها هو ذا ابن النديم يقول عنه :

« ... وله مع ذلك صنعة فى الغناء ، يتقدم فيها كل أحد ، وكان اسحاق وابراهيم الموصلى قبله يأخذان عنه ، ويتحاكم المغنون اليه فى صناعته »(٤٦) ، كما يذكر انه قد ألف فيه كتابا(٤٧) .

وهذا ابن حزم الأندلسى يقول عنه انه : « من أبصر الناس بالغناء وأعلمهم به »(٤٨) .

---

(٤٤) السابق : ١٠/١١٦ .

(٤٥) السابق : ١٠/١١٠ .

(٤٦) الفهرست : ١٢٨ .

(٤٧) السابق : ١٢٨ .

(٤٨) جمهرة أنساب العرب : ٤٢ .

وكان لابراهيم بن المهدى أخت تناظره فى حسن الصوت واجادة الغناء ، وهى « علية بنت المهدى » وقد عرف الناس أمرهما ، فتجاوبت أصداء الشهرة فى حسن صوتهما ، حتى كان الناس يقولون : لم ير فى جاهلية ولا اسلام أخ وأخت أحسن غناء من ابراهيم بن المهدى وأخته علية(٤٩) .

ويعد ابراهيم بن المهدى — لذلك — أشهر من أنجبهم الخلفاء ذكورا واناثا فى الغناء ، وأعمقهم صناعة ، وأتقنهم فنا ، وكان بينه وبين اسحاق الموصلى عميد محترفى الغناء فى عصره منازعات ومساجلات وجدل فنى ، ولكن ذلك كله لم يمنع اسحاق من شهادة الحق والاقرار بمنزلة ابراهيم ، حتى لقد قال فيه : « ما ولد العباس ابن عبد المطلب بعد عبد الله بن العباس رجلا أفضل من ابراهيم بن المهدى ، فقيل له : مع ما تبذل له من الغناء ؟ فقال : وهل تم فضله الا بذاك »(٥٠) .

ولكن شهادات المعاصرين لابراهيم بسبقه وتقدمه فى غنائه وموسيقاه ،وكذلك شهادات المتأخرين لم تكن أقوالا تصدر عنهم دون أن يكون لها صدى فى نفوسهم ، بل كانت ترجمة عن حقيقة واقعة ، شهد بها الناس جميعا متقدمين ومتأخرين ، يؤكد هذه الشهادات ويقويها اعجاب الخلفاء به وطربهم له ، على مدى الفترة الزمنية التى عاصرهم فيها ، وهم أخوه الخليفة هارون الرشيد ، وأبناؤه الخلفاء : الأمين والمأمون والمعتصم . حدث ابنه : هبة الله بن ابراهيم بن المهدى قال : « كان الرشيد يحب أن يسمع أبى ، وقال جحظة عن هبة الله عن ابراهيم قال : كان الرشيد يحب أن يسمعنى ، فخلا بى مرات الى

---

(٤٩) الأغانى : ١٠/١٠١ .
(٥٠) الأغانى : ١٠/١٠١ .

أن سمعنى ، ثم حضرته مرة ، وعنده سليمان بن أبى جعفر فقال لى : عمك وسيد ولد المنصور بعد أبيك ، وقد أحب أن يسمعك ، فلم يتركنى حتى غنيت بين يديه :

اذا أنت فينا لمن ينهاك عاصية واذ أجر اليكم سادرا رسنى

فأمر لى بألف ألف درهم »(٥١) .

أما الخليفة محمد الأمين بن هارون الرشيد ، فكان من المعجبين بغناء ابراهيم بن المهدى « غنى الأمين ابراهيم بن المهدى :

هجرتك حتى قيـــل لا يعرف الهوى
وزرتك حتى قيـــل ليس له صـــبر
فيا هجـــر ليلى قـــد بلغـــت بى المدى
وزدت على ما ليس يبلغـــه الهجـــر
ويا حبهـــا زدنى جوى كل ليـــلة
ويا ســـلوة الأيام موعـــدك الحشـــر

فطرب طربا شـــديدا واستعاده ، قال : فلمـــا أردت الانصراف ، قال : يا عم ، تركب الماء أو الظهر ؟ فقلت : المـــاء أرفه لى يا ســـيدى ، فقال : أوقروا زورقه دراهم(٥٢) .

وغنى ابراهيم بن المهدى يوما محمدا الأمين صوتا أطربه ، وهو قول السيد الحميرى :

ما جرت خطرة على القلب من ذكـــ
ـــراك الا استترت من أصـــحابى
من دموع تجرى وان كنت وحدى
خاليـــا أسعد الدموع انتحابى

---

(٥١) الأغانى : ١٠/١٠٤ .
(٥٢) المختار من قطب السرور : ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

ان حبى اياك قد سل جسمى
ورمانى بالشيب قبل الشباب
فارحمى عاشقا بحبك صبا
خاضع الطرف لاثما للتراب

فقام الأمين عن مجلسه ، فقبل رأسه ، فقام ابراهيم فقبل أسفل رجليه ، وما وطئتا من بساطه ،فأمر له بثلاثمائة ألف درهم ، فقال له ابراهيم : يا سيدى قد أجزتنى الى هذه الغاية بعشرين ألف دينار قال : وهل هى الا خراج بعض الكور(٥٣) .

أما المأمون فكان من محبى غنائه ومن المطربين بصوته ، فقد قيل انه طلب اليه أن يغنى له — وذلك بعد أن عفا عنه ونادمه ولاطفه — فاعتذر اليه ابراهيم بأنه نذر لله نبذ الغناء ، عند خلاصه فألح عليه وأمر بوضع العود فى حجره فغنى :

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت منى
لوى الدهر بى عنها وولى بها عنى
فان أبك نفسى أبك نفسا عزيزة
وان أحترقها أحترقها على ضن
عدوت على نفسى فعاد بعفوه
على فعاد العفو منا على من

فقال له المأمون : أحسنت وأجازه بعشرة آلاف دينار(٥٤) .
واصطبح المأمون يوما وأمر باحضار ابراهيم بن المهدى فقال : غننى لحنا من صنعتك فى شعرك فغناه :

---

(٥٣) المختار من قطب السرور : ٢٣١ .
(٥٤) اسحاق الموصلى : ١٠٢ .

فرقا بيني وبين الـ ... فكر بالراح الشـمول
واسقياني قبل أن يصـ ... سحبني عذل العذول
مال بي عن صحة الرأ ... ى الى السكر الطويل
ما أرى من غضب الدن ... يا على أهل العقـول

فطرب ومازال يستعيده فيه بقية يومه ، وشرب عليه حتى سكر ونام(٥٥) .

ولا يقل اعجاب الخليفة المعتصم بغناء عمه ابراهيم وصوته عن اعجاب أبيه هارون الرشيد وأخويه : الأمين والمأمون ، يدل على ذلك ما حدث به محمد بن الحارث بن بسخنر حين قال : دعاني المعتصم فدخلت أنا ومخارق وعلويه ، وبين يديه ثلاث جامات : جام فضة مملوءة دنانير جددا ، وجام ذهب مملوءة دراهم ، وجام قوارير مملوءة عنبرا، فغنيته واجتهدنا فلم يطرب ، ولم يتحرك لشيء من غنائنا ، ودخل الحاجب ، فقال : ابراهيم بن المهدي ، فأذن له فدخل ، فغناه أصواتا أحسن فيها ، ثم غناه بصوت من صنعته ، وهو :

ما بال شمس أبى الخطاب قد غربت
يا صاحبى أظن الساعة اقتربت
أشكو اليك أبا الخطاب جارية
عزيزة بفؤادى اليوم قد ذهبت

فاستحسنه المعتصم وطرب له ، وقال : أحسنت والله ! فقال ابراهيم : يا أمير المؤمنين ، فان كنت أحسنت فهب لى احدى هذه الجامات ، فقال : خذ أيتها شئت ، فأخذ التى فيها الدنانير ، فنظر بعضنا الى بعض ، لأنا كنا نرجو أن نأخذها ، ثم غناه ابراهيم بشعر له ، وهو :

---

(٥٥) المختار من قطب السرور : ٢٤٠ .

فما مزة قهوة قرقف
شمول تروق براووقها
بكف أغن خضيب البنا
ن يخطر بين أباريقها
مريش الجفون بنبل العيو
ن يرمى بأمكن تفويقها
بأطيب من فمها نكهة
اذا امتصت الشهد من ريقها

فقال المعتصم : أحسنت والله يا عم وسررت ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ان كنت أحسنت فهب لى جاما أخرى ، فقال : خذ أيتهما شئت ، فأخذ الجام التى فيها الدراهم ، فعند ذلك انقطع رجاؤنا منها ، وغناه بعد ساعة :

ألا ليت(٥٦) ذات الخال تلقى من الهوى
عشير الذى ألقى فيلتئم الحب(٥٧)
اذا رضيت لم يهننى ذلك الرضا
لعلمى به أن سوف يتبعه عتب

فارتج بنا المجلس الذى كنا فيه ، وطرب المعتصم ، واستخفه الطرب ، فقام على رجليه ، ثم جلس فقال : أحسنت والله يا عم ما

---

(٥٦) هذا الشعر للعباس بن الأحنف ، كما فى الأغانى : ١٠/١٢٢

(٥٧) فى « المختار من قطب السرور » روى هكذا : فتعام ما الحب بدل : فيلتئم الحب .

شئت ! قال : فان كنت قد أحسنت يا أمير المؤمنين ، فهب لى الجام الثالثة ، فقال : خذها ، فأخذها ، وقام المعتصم(٥٨) .

ولا أدل على جمال غنائه وحسن أدائه ، وشدة تمكنه فى غنائه وموسيقاه من أن بعضا من الناس ممن يذمون الغناء ، قد هالهم صوته وتملكهم غناؤه ، لدرجة أصبحوا فيها يشتهون سماعه ، ويودون غناءه ، حدث القاضى أحمد بن أبى داود ، قال :كنت كثيرا ما أذم الغناء ، وأقول : ما يشتهيه الا من لا حاسة له ، فوجه الى المعتصم وهو راكب فى دجلة ، فلحقته فسمعت صوتا من الحراقة أذهلنى حتى سقط سوطى من يدى ، ووقفت دابتى ، قلت لزنقطة غلامى : أعطنى سوطك،فقال : لا سوط ــ والله ــ لى،لأنه شغلنى ــ والله ــ ما شغلك، حتى سقط سوطى ، فلم أتمالك أن ضحكت عجبا من نفسى ، ولحقت بالمعتصم فحدثته الحديث ، وقلت يا أمير المؤمنين ، هذا الصوت جنى أم أنسى ؟ فقال : هذا صوت عمى ابراهيم يغنى :

ان هذا الطويل من آل حفص
نشر الجود بعدما كان ماتا
وبناه على أساس وثيق
وعماد فأثبتا اثباتا
مثل ما قد بنى له أولوه
وكذا يشبه النبات النباتا

فاشتهيت لو أعاده ، وفطن المعتصم لشهوتى ، فقال : لا والله لا يعيده أو تتوب عما كنت عليه من بغض الغناء ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ما علمت أن الغناء من أجل الحظوظ الا يومى هذا ،

---

(٥٨) الأغانى : ١٠/١٢٠ ــ ١٢١ ، المختار من قطب السرور : ٢٤٦ ــ ٢٤٨ .

ولا أعود الى ما كنت عليه من ذلك ، فأعاد ابراهيم الصـــوت فكدت أطير طربا(٥٩) .

وبعد ، فلا عجب ــ لكل ما تقدم ــ أن يعد ابراهيم بن المهدى من أنبغ المغنين وأكثرهم دراية بعلوم الموسـيقا العربية وفنونهـا ، ومن أجملهم صوتا وأحسنهم غنـاء ، وأجودهم صـنعة ، بل انه ليعد المثل الســائر ، والنموذج الحى ، والشـهادة الخالدة لقام الموسـيقا العربية منذ أكثر من ألف عام(٦٠) .

ــ ٤ ــ

ابراهيم بن المهدى والشعر :

يعد ابراهيم بن المهدى واحدا من أعلام الشعر فى العصر العباسى الأول ، موهبة وطبعا ، وجودة وكثرة ، وسلاسة وفصاحة .. لكن غلبة صنعته فى الموسيقا والغناء على شعره ، جعلته لا يكاد يذكر مع أعلام الشعر فى هذا العصر الا قليلا..ومع ذلك فقد عده المرزبانى من الشعراء المطبوعين المكثرين ، فقال عنه « وهو شاعر مطبوع مكثر »(٦١) . أما أبو الفرج الأصفهانى فقد وصفه « بفصـاحة اللسان وحسن البيـان وجودة الشعر .. »(٦٢) .

وجودته فى الشـعر جعلت ابن عبد ربه يقول عنـه : انه شـاعر مفلق(٦٣) . ومع طبعه فى الشعر وجودته فيه كان شاعرا مكثرا ، كما

---

(٥٩) المختار من قطب السرور : ٢٤٨ .
(٦٠) اسحق الموصلى : ١٠٣ .
(٦١) من الضائع من معجم المرزبانى : ١٣ .
(٦٢) الأغانى : ١٠/١٠٣ .
(٦٣) العقد الفريد : ٦/٣٦ .

يقول عنه المرزبانى ، وقد بلغ شعره مائة ورقة كما يقول ابن النديم(٦٤) ولم ير فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لسانا ، ولا أحسن منه شعرا(٦٥) .

ومع الطبع والجودة والكثرة كان ابراهيم بن المهدى ذا بديهة قوية ، يدل على ذلك ما روى(٦٦) أن ابراهيم بن المهدى دخل على أمير المؤمنين المأمون ، وكان ابراهيم أثجل البطن ، كثير اللحم والشحم ، فقال له المأمون : بالله يا عم ، عشقت قط ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، وأنا الساعة عاشق ، قال : وأنت على هذه الجثة والشحم الكثير ؟! ثم أنشأ المأمون يقول :

وجه الذى يعشق معروف
لأنه أصفر منحوف
ليس كمن أمسى له جثة
كأنه للذبح معلوف

فأجابه ابراهيم بديهة فى ذلك :

وقائل لست بالمحب ولو
كنت محبا لذبت مذ زمن
فقلت : قلبى مكاتم بدنى
حبى فالحب فيه مختزن
أحب قلبى وما درى بدنى
ولو درى لم يقم به السمن

---

(٦٤) الفهرست : ١٨٧ .

(٦٥) وفيات الأعيان : ١/٣٩ .

(٦٦) الظرف والظرفاء : ١٢٦ ـ ١٢٧ ، المختار من قطب السرور : ٢٣٢ .

ومما يدل على بديهته القوية ـ أيضا ـ ما رواه(٦٧) ابنه هبة الله بن ابراهيم ، قال : كانت فى يد المعتصم باقة نرجس ، فحيى بها ابن أبى مريم ، وقال : يا ابراهيم قل فيه شعرا ، فقال من وقته :

ثلاث عيون من النرجس
على قائم أخضر أملس
يذكرننى طيب ريا الحبيب
فيمنعننى لذة المجلس

وكان ابراهيم بن المهدى يضم الى هذا كله ذوقا شعريا ينم عن موهبة فنية وملكة بيانية ، تستطيع أن تميز الجيد من الردىء ، ولعل فيما نورد من الرواية الآتية خير دليل على ذلك ، حدث جحظة(٦٨) قال : حدثنى خالد بن يزيد الكاتب ، قال : لم أشعر الا ورسول ابراهيم بن المهدى قد وافانى ، فدخلت اليه ، فقال : أنشدنى شيئا من شعرك ، فأنشدته :

رأت منه عينى منظرين كما رأت
من البدر والشمس المضيئة بالأرض
عشية حيانى بورد كأنه
خدود أضيفت بعضهن الى بعض
وناولنى كأسا كأن حبابها
دموعى لما صد عن مقلتى غمضى
وراح وفعل الراح فى حركاته
كفعل نسيم الريح فى الغصن الغض

---

(٦٧) المختار من قطب السرور : ٢٤٩ .
(٦٨) وفيات الأعيان : ٢/٢٢٤ .

فزحف حتى صار فى ثلثى المصلى ثم قال : يا بنى شبه الناس الخـدود بالورد ، وشـبهت أنت الورد بالخـدود ، ثم قال : زدنى ، فأنشدته :

عـاتبت نفسى فـى هـوا
ك فلـم أجـدها تقبـل
وأجبـت داعيهـا اليـ
ك ولـم أطـع من يعـذل
لا والذى جعـل الوجـو
ه لحسـن وجهـك تمثـل
لا قلـت ان الصـبـ
ـر عنك من التصابى أجمـل

فزحف حتى صار خارج المصلى ، ثم قال : زدنى ، فأنشدته :

ظفـر الحب بقلب دنف
بك والسـقم بجسم ناحل
ويكى العاذل من رحمتـه
فبكائى لبكاء العـاذل

فصـاح وقال : يا بليـق ، كم معك من العـين ؟ قال : ستمائة وخمسون دينارا ، فقال : اقسمها بينى وبينـه واجعل الكسر للغـلام كامـلا .

وقد أتاحت له ملكته الشعرية الموهوبة أن يتصرف فى فنون الشعر المختلفة ، بمهارة واقتدار ، فقد برع فى الغزل ، وأجاد الوصف،وأحكم المدح ، وعرض للهجـاء ، وطـرق الحـكم ، وتنـاول الرثاء ، وقال فى الاعتذار .

(أ) شعره فى المدح :

على الرغم من اجادة ابراهيم بن المهدى لفن المدح ، الا أنه لا يمكن أن يعد من شعراء المديح ، وذلك لأسباب : وهى قلة شعره منه ، وانه لم يتخذه طريقا للكسب أى لم يحترفه احترافا ، وانه لم يمدح به الا الخلفاء ، وفى ظل ظروف معينة ، وذلك كمدحه للخليفة المأمون حين عفا عنه ، وهذا مسلك طبعى لا يستغرب من أمير شريف وابن خليفة هو المهدى ، وأخ لأشهر خليفة فى العصر العباسى هو هارون الرشيد ، وعم خلفاء ثلاثة هم : الأمين والمأمون والمعتصم ، فكيف يمكن لمثله أن يقول المدح تكسبا أو تملقا ؟ ان له من شرف بيته ومنزلة أسرته ، وثراء مثله ما يحول دون ذلك .

ومديح ابراهيم لا يعدو فى منهجه ما سلكه المتقدمون من طرائق المديح ، الى توخت وصف الممدوح بالصفات العربية الأصيلة وبخاصة اذا كان خليفة ، وما يتطلبه هذا المديح من اضفاء الصفات التى يجب أن تتوفر فى الخليفة ، كالكرم والبأس والشجاعة والمهابة ، والعدل والتواضع ، والحذر واليقظة ورعاية مصالح المسلمين ، وانتهاء الفضائل اليه .

ومن خير قصائده المدحية التى تمثل هذا اللون من شعره قصيدته فى مدح المأمون بعد عفوه عنه والتى يقول فيها :

يا خير(٦٩) من ذملت يمانية به
بعد الرسول لآيس أو طامع
وأبر من عبد الاله على الهدى
نفسا وأحكمه بحق صانع

---

(٦٩) الأغانى : ١٠/١٢٣ .

عســـل الفوارع ما أطعت فان تهج
فالموت فى جـــرع السمام النـاقع
متيقظـا حذرا ومـا يخشى العـدا
نبهـان من وسـنات ليـل الهـاجع

وفى هذا المقطع يخلع عليه ابراهيم من الصفات ما يوصف بهـا مثله ، فالخليفة ــ كما هو مقرر فى أذهان الناس ــ ملاذ كل خـائف ، ورجاء كل طـامع ، واذا وصـفه الشـاعر بأنه أمل اليائسين ، ورجاء الطامعين ، وذلك فى قوله :

يا خير من ذملت يمانية به بعد الرسول لآيس أو طامع

انه خير من شدت اليه الرحال ــ بعد الرسول ــ لأنه منتهى كل راغب ، يرجو النضل والنوال ، وأمل كل يائس من الحياة ، يبتغى منه الأمل والتفاؤل .

كما وصفه بأنه من خـير الطائعين المهتـدين الذين عـدوا الله ملتزمين بالمنهج القويم ، ومن أحكمهم قولا صـادعا بالحق :

وأبر من عبد الاله على الهدى نفسا وأحكمه بحق صادع

والمأمون ــ عند ابراهيم ــ قد جمع بين صفتى الكرم والبأس ، والنفع والضر : النفع لأوليـائه الذين التزموا بطاعتـه ، والضر ــ بل الموت ــ لأعدائه الذين خالفوا أمره ، وعصوا قوله :

عسل الفوارع ما أطعت فان تهج فالموت فى جرع السمام الناقع

كما وسمه بسمات التيقظ والحذر وعدم الخوف من الأعداء :

متيقظا حذرا وما يخشى العدا نبهان من وسنات ليل الهاجع

ونظرة الى هذه المعـانى نجد أنها معان اسلامية استحدثت فى العصر الاسلامى وتناولها الشـعراء فى مدائحهم للخلفاء ووزرائهم ،

ذلك لأن الخلافة الاسلامية قامت على أساس دينى ، فالخليفة ظل الله فى أرضه ، وهو الحامى للدين والقائم بأمره ، والناشر لتعاليمه ، والحاكم وفق ما فرضته الشريعة الاسلامية ، وما جاء به القرآن الكريم من الفضائل الحميدة ، كالعدل ، لأنه ملاذ الخائفين وأمل الراجين ، وكالتقوى والالتزام بطاعة الله ، وكنفعه للطائعين ، وعقابه للعاصين .. وكالتيقظ والحذر والسهر على رعاية مصالح الاسلام والمسلمين .... وغير ذلك .

وقد سار فيها ابراهيم على منوال من سبقوه من الشعراء ، وبخاصة من كانوا أقرب اليه عهدا ، فمعانى ابراهيم السابقة أشبه بمعانى مروان بن أبى حفصة فى مدائحه التى أضفاها على كل من الخليفة المهدى ، ومعن بن زائدة الشيبانى ، وابنه .

فما أشبه قول ابراهيم بن المهدى ، وهو :

يا خير من ذملت يمانية به بعد الرسول لآيس أو طامع

ـ ما أشبهه بقول مروان بن أبى حفصة فى مدح معن بن زائدة :

الى(٧٠) المجتدى معن تخطت ركابنا
تتائف فيما بينها الريح تلعب
الى باب معن ينتهى كل راغب
يرجى الندى أو خائف يترقب

وما أشبه قوله :

عسل الفوارع ما أطعت فان تهج فالموت فى جرع السمام الناقع

ما أشبه قوله هذا بقول مروان فى مدح ابن معن بن زائدة :

---

(٧٠) مروان بن أبى حفصة : ١٦٢ .

سخطك(٧١) الحتف حين تسخط والغنـ
ـم اذا ما رضيت يومـا رضـاكا
كل ذى طـاعة من الناس يرجـو
ك كمـا كل مجـرم يخشـاكا

وما أشبه قوله :

متيقظا حذرا وما يخشى العدا نبهان من وسنات ليل الهاجع

ـ ما أشبهه بقول مروان فى مدح الخليفة المهدى :

يكون(٧٢) غرارا نومه من حذاره على قبة الاسلام والخلق شاهد

وقد أضاف ابراهيم الى تلك الصفات السابقة ـ والتى خلعها على المأمون ـ صفات أخرى ، تكمل بها شخصيته الاسلامية كخليفة للمسلمين ، فقد وصفه ابراهيم ـ فى هذه القصيدة ـ بالورع والتواضع ،وذلك فى قوله :

رد(٧٣) الحياة الى بعد ذهابها ورع الامام القاهر المتواضع

كما وصفه بأنه حاز الفضائل كلها وأن الله ادخرها فى صلب آدم ليمنحها للمأمون :

ان(٧٤) الذى قسم الفضائل حازها فى صلب آدم للامام السابع

ونظرا لأن هذه القصيدة قيلت فى مقام عفو المأمون عنه ، فقد مزج ابراهيم تلك المعانى السابقة،بما للخليفة عليه من أياد كثيرة وفضائل

---

(٧١) المصدر السابق : ١٤٨ .
(٧٢) المصدر السابق : ١٥٩ .
(٧٣) الأغانى : ١٢٤/١٠ .
(٧٤) السابق ، الصفحة نفسها .

جمة أسداها اليه خالصة هنيئة ، فرحم بهذه الأيادى وتلك النعم أطفالا صغارا وزوجا عجوزا ، وقد من عليه بالعفو والتقريب والتكريم،وهذا احسان من الخليفة لم يشفع فيه عنده شافع ، ولا كان هو أهلا له ولكنه ترفع الخليفة عن المعقوبة وعفوه عند المقدرة يقول ابراهيم :

كم من(٧٥) يد لك لا تحدثنى بها
نفسى اذا آلت الى مطامعى
أسديتها عفوا الى هنيئة
فشكرت مصطنعا لأكرم صانع
ورحمت أطفالا كأفراخ القطا
وعويل عانسة كقوس النازع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله
عفو ولم يشفع اليك بشافع
الا العلو عن العقوبة بعدما
ظفرت يداك بمستكين خاضع

لذا فهو يدعو له بطول الحياة ، كما يدعو على أعدائه بالموت والهلاك ، يقول ابراهيم :

أحياك(٧٦) من ولاك أطول مدة ورمى عدوك فى الوتين بقاطع

ويعد مديح ابراهيم للخليفة المأمون ــ ازاء عفوه عنه وتكريمه له ــ بمثابة شكر له وثناء عليه،فهو الذى آمنه من خوف وأطعمه من جوع،لذا فهو جدير بخير الثناء وعظيم الشعر ، بل يرى هذا الثناء واجبا ، وفاء لحق الشكر ، وان لم يفعل فما وفاه شكره،بل هو فى حال الثناء والشكر عاجز عن الوفاء به لأنه فوق كل شكر وثناء ، يقول من قصيدة أخرى :

---

(٧٥) السابق ، الصفحة نفسها .
(٧٦) السابق ، الصفحة نفسها .

أعنيك (٧٧) يا خـير من تمنى بمؤتلف
من الثنـاء ائتلاف الدر فى النظـم
أثنى عليك بما جـددت من نعـم
وما شـكرتك ان لـم أثن بالنعـم
رددت مـالى ولـم تمنن عـلى به
وقبـل ردك مالى قـد حقنت دمى
فنؤت منـه وما كافأتهـا بيـد
هى الحياتان من مـوت ومن عـدم

ونحس فى مديح ابراهيم لابن أخيه الخليفة المأمون صدقا ، ذلك أن مديحه له لم يصنعه ملق ولا رياء ، ولا رغبة فى عطاء ، بل صاغته أحاسيس نفسه الصادقة ، وخلجات قلبه الشاعرة بعميق الفضل نحـو المأمون ، فمديحه ـ لذلك ـ وليد تجربة حقة ، ونبع موقف صـادق ، انه موقف العفو عنه وشموله بالتكريم والتقريب ، فلا غرو أن يعبـر عن هذه المكرمة ، وتلك اليد ـ بل الأيادى ـ فى شعر صادق ، قوى العاطفة ، متدفق الشعور .

(ب) شعره فى الاعتذار :

والاعتذار غرض شعرى قديم سلكه الشعراء منذ العصر الجاهلى ، وكان أشـهر من عرف بهـذا اللون من الشـعر النابغـة الذبيانى فى اعتذارياته للنعمان بن المنـذر ، وقد عقـد ابن رشيق للاعتذار بابا فى كتابه « العمدة » .

والمنهج الذى يراه ابن رشيق فى الاعتذار ، هو أن يذهب الشاعر فى ذلك مذهبا لطيفا ، ويقصد مقصدا عجيبا ، ويعرف كيف يأخذ بقلب

---

(٧٧) أشعار أولاد الخلفاء : ١٩ .

المعتذر اليه ، وكيف يمسح أعطافه ، ويستجلب رضاه ، فان اتيان المعتذر من باب الاحتجاج واقامة الدليل خطأ ، لاسيما مع الملوك وذوى السلطان ، وحقه أن يلطف برهانه مدبجا فى التضرع والدخول تحت عفو الملك ، طالبا الكشف عن كذب الناقل ، محيلا الكذب على الناقل والحاسد (٧٨) .

ولقد كان لابراهيم بن المهدى اعتذاريات قدمها بين يدى الخليفة المأمون ، علّه يعفو عنه ويغفر له .. منها قوله (٧٩) :

والله يعلم ما أقول فانها
جهد الألية من حنيف راكع
قسما وما أدلى اليك بحجة
الا التضرع من محب خاشع
ما ان عصيتك والغواة تمدنى
أسبابها الا بنية طائع

فهو — هنا — يقسم اليه بأغلظ الايمان — يقسم بالله — قسم مؤمن طائع خاشع ، وهو يقسم غير مبتغ ادلاء بحجته أو اقامة لدليله ، ليتخذ منهما سبيلا للعفو عنه ، بل يتخذ من تضرعه ودخوله تحت عفو الخليفة سبيلا الى ذلك ، مبينا أنه حين عصاه بسبب الغواة الذين دفعوه الى ذلك — لم يكن يقصد اليه قصدا بل كانت نيته حسنة ، وكان قلبه يدين له بالولاء والطاعة .

وهنا نلاحظ أن اعتذار ابراهيم للخليفة المأمون قد استوفى شرائط

---

(٧٨) العمدة : ٢/١٧٦ .
(٧٩) الأغانى : ١٠/١٢٤ .

الاعتذار فى مقياس النقـد الذى رآه ابن رشـيق ، بل نراه يستشهد بشعره فى هذا المجال(٨٠) .

ولقد ترك اعتذار ابراهيم هذا أثرا فى نفس الخليفة المأمون ، بل ملك عليـه مشاعره ، واستولى على عواطفـه ، فما لبث أن بكى ، ثم قال : عـلى به ، فأتى به فخلع عليـه وحمله وأمر له بخمسـة آلاف دينـار(٨١) .

ومثل اعتذاره السابق للخليفة المأمون استعطافه للأمين ، حـين غضب عليه ، وذلك فى قوله :

هتكت(٨٢) الضـمير برد اللطف
وكشفت هجـرك لى فانكشـف
وان كنـت تنكر شـيئا جـرى
فهـب للخـلافة ما قـد سـلف
وجـد لـى بصـفحك عن زلتى
فبالفضـل يأخذ أهل الشـرف

وذلك انه جرى بين الأمين وابراهيم كلام على النبيذ ، فوجد عليه الأمين ، فلما كان بعد أيام بعث اليه ابراهيم بألطاف،فلم يقبلها ، فوجه اليه وصيفة مليحة مغنية معها عود معمول من عود هندى ، وقال هذه الأبيات وغنى فيها وألقاها عليها،حتى أخذت الصنعة وأحكمتها،ثم وجه بهـا اليه ، فوقفت الجـارية بين يديه ، وقـالت له : عمك وعبـدك يا أمير المؤمنين يقول لك ، واندفعت تغنى بالشعر ، فسر الأمين بها ،

---

(٨٠) العمدة : ١٧٦/٢ .
(٨١) الأغانى : ١٢٤/١٠ .
(٨٢)المصدر السابق : ١٣١/١٠ .

وبعث الى ابراهيم فأحضره ورضى عنه ، وأمر له بخمسة آلاف دينار، وتمم يومه معه(٨٣) .

(ج) شعره فى الهجاء :

طرق ابراهيم بن المهدى فن الهجاء ، ولكن فى حدود ضيقة ، ويظهر أن دينه وخلقه وتصونه قد حال دون انخراطه فى سلك الهجائين ، والهجاء ضد المدح ، واذا كان المدح الجيد انما يكون بالفضائل النفسية ، فالهجاء الجيد يكون بسلب هذه الفضائل ، وكلما كثرت أضداد المديح فى الشعر كان أهجى له ، ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الأهاجى فيها وكثرتها(٨٤) . فالهاجى — اذن — يعمد الى الصفات النفسية والفضائل الانسانية فيسلبها المهجو .

ومن أهاجى ابراهيم ما قاله فى محمد بن عبد الملك الزيات لما ولى وزارة المعتصم — وكان ابراهيم يشنأ الزيات — قال ابراهيم :

يا بؤس(٨٥) يوم كاسف ان لم يغير فى غده
لأمة وزيرها عاصر زيت بيده
يظهر نصحا وجهه وغشه فى كبده

فقد هجاه ابراهيم وانتقص من قدره بامتهان صنعته ، وهى عصر الزيت ، وذلك أمر يجعل ابن الزيات أبعد ما يكون عن تولى مثل هذا المنصب الكبير ، مما جعل اليوم الذى تولى فيه الوزارة يوما كاسفا ، ان لم يغير فى الغد ، ويقصى فيه ابن الزيات ، كما وصفه بالنفاق وعدم الصدق فى معاملاته ، فهو يظهر — بوجهه — النصح ، ويخفى — فى

---

(٨٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٨٤) نقد الشعر : ٣٠
(٨٥) أشعار أولاد الخلفاء : ٣١ .

داخله ــ الغش والخداع ! ، وهى صفات لا تجعله أهلا لأى فضل ، فضلا عن الوزارة !

ولعل كراهية المهجو هى التى تجعل ابراهيم ينقض عليه كالصقر الجارح ، يدميه بأظافر الهجاء القوية ، كما سبق فى أبياته التى هجا بها ابن الزيات ، ومثلها ــ كذلك ما هجا به الخليفة المأمون ، وكان ابراهيم ــ مع احسان المأمون اليه ــ يكرهه ويشنؤه ويعيب أفعاله ، وله فى ذلك أشعار منها :

صد(٨٦) عن توبة وعن اخبات
ولها بالمجون والقينات
ليس ينفك مازجا فى يديه
خمر قطربل بماء الفرات
ما يبالى اذا خلا بأبى عي(٨٧)
سى وشرب من بدن عطرات
أن يغص المظلوم فى حومة الجو
ر بداء بين الحشا واللهاة

ونلاحظ فى هذه الأبيات أن ابراهيم قد طعن المأمون فى أعز جانب من جوانب شخصيته،وهو جانب التقوى والورع اللذين يجب أن يتحلى بهما الانسان المؤمن ، فضلا عن خليفة للمسلمين ، وذلك حين صوره صادا راغبا عن التوبة لله والخضوع له ، فى الوقت الذى شغل فيه نفسه باللهو والمجون مع الجوارى الحسان ، كما يصفه منهمكا على شرب الخمر ، فهو لا يفتأ يتناولها ، وكما صوره غير معنى بأمور المسلمين.

---

(٨٦) المصدر السابق : ٣٢ .

(٨٧) هو أحمد ــ أو صالح ــ بن هارون الرشيد أخو المأمون ، وكان من أحسن الناس وجها ومجالسة وعشرة وأمجنهم وأحدهم نادرة وأشدهم عبثا ، وكان المأمون أشد الناس حبا لأبى عيسى (الأغانى : ١٠/١٩٧ ، ٢٠٠)

وبخاصة حين يضمه مجلس يجمع بينه وبين أخيه أبى عيسى وندامى شراب من النساء السمينات الواتى يفوح منهن العطر وتنتشر فى أبدانهن الرائحة الطيبة !

وقد يأخذ هجاء ابراهيم طابع التهكم والسخرية من أفعال المهجو التى تبدو منافية للحقيقة والواقع ، مازجا بينها وبين سلب الفضائل عنه ، وبذلك يجمع بين سلب الفضائل والسخرية والتهكم ، وذلك على نحو ما نجده فى هجائه لأبى العتاهية حين تزهد ولبس الصوف ، يقول ابراهيم :

ان المنية(٨٨) أمهلتك عتاهى
والموت لا يسهو وقلبك ساهى
يا ويح ذا البشر الضعيف أما له
عن غيه قبل الممات تناهى
وكلت بالدنيا تبكيها وتنـ
ـدبها وأنت عن القيامة لاهى
العيش حلو والمنون مريرة
والدار دار تفاخر وتباه
فاجعل لنفسك دونها شغلا ولا
تتجاهلن لها فانك داهى

ويبدو ابراهيم ــ فى هذه الأبيات ــ مشفقا على أبى العتاهية ، راثيا لحاله حين مدت له الحياة ، ولم يستطع شغلها بالعمل الصالح ، بل سها عن الموت وعما ينتظره بعده من ثواب وعقاب !

أما ينتهى عن غيه ولهوه قبل أن يدركه الموت ، ويحه ! ويا له من

---

(٨٨) أشعار أولاد الخلفاء : ٤٧ ــ ٤٨ .

انسان ضعيف عاجز أمام لهوه وغيه وشهوته ! وهو حريص على الدنيا، شغوف بها ، يبكيها ان فاتته ، بينما هو لاه عن يوم القيامة ، وعما فيه من حساب ، ذلك لأن الحياة جميلة حلوة ، والموت قبيح مر ، ثم يخلص من هذا الاشفاق وذاك الرثاء ، الى هجائه والسخرية به ، لما يتكلفه من زهد وتخشع •• ناعيا عليه اعجابه بمديح الناس وثنائهم عليه ووصفهم اياه بالفصاحة والبلاغة وعظم الجاه ، فخير له أن يصلح فساد سريرته ، وأن يخشى الله الذى يطلع عليه وعلى أفعاله الظاهرة والخفية ، يقول ابراهيم :

لا يعجبنك (٨٩) أن يقال مفوه حسن البلاغة أو عريض الجاه
أصلح فسادا من سريرتك التى تلهو بها وارهب مقام الله

ثم يرميه بالزيغ عن الحق ، بل بالالحاد والتكذيب بيوم البعث ، وهذه الصفات لا تتآلف ولا تلتقى مع الزهد الذى يدعيه ، اذا فما الزهد الذى يدعيه والخشوع الذى يظهره الا ضلال وسفاه •

فالزهد الذى يتظاهر به يحتاج فى اثباته الى أفعال وأقوال هى به أشبه ، وله أمثل ، لا هذه الأشياء الشكلية التى يتظاهر بها ، وهى لبس الصوف ، فلبس الصوف ليس الحجة التى تدعو النجاة، فما لبس الصوف اذا فسدت السريرة سوى حبل واه ، يتعلق به من يدعى الزهد ويظهر التخشع ! يقول ابراهيم :

ما الزهد(٩٠) من رجل ألد مكذب
بالبعث غير ضلالة وسفاه
وأرى المقالة غير صالحة وان
أظهرت غير مقالة الأواه

---

(٨٩) المصدر السابق : ٤٨ •
(٩٠) المصدر السابق : ٤٨ •

انى رأيتـــك مظهـرا ازهـادة
نحتـاج منـك لهـا الى أشـــباه
ان كان لبس الصـــوف حجتك التى
تدعـــو انجـــاة فاننى لك نـاه
ما فى يديك من اللبـاس اذا غـــوت
منك السـريرة غـير حبـــل واه

وهكذا يعرى ابراهيم أبا العتاهية ويكشف حقيقته الكاذبة وزهده المصطنع وخشـوعه المتكلف ، ويبين له ـ فى الوقت نفسه ـ سمات الزهد الحقيقى التى تتمثل فى الانصراف عن الدنيا ، واصلاح السريرة، والايمان بالبعث ، والعمل لما بعد الموت .

(د) شعره فى الغزل :

كلف ابراهيم بن المهدى بالغزل وشغف به ، شأن الشعراء جميعا، وشأن المترفين من أبناء الخلفـاء ، الذين أتاحت لهم ظروف حيـاتهم وأفسحت لهم أحوالها أن يتغنوا بالمـرأة وأحوالها ، وان يبرزوها فى صور متعددة ، وصفا لمحاسنها تارة ، وعتابا لها وشكوى منهـا تارة وكشفا عن أحوالها ومواقفها تارة أخرى .

ولابراهيم أشعار غزليـة رائقة ، تنم عن شاعرية فذة مصورة ، ولكنه غزل نفتقد فيه الاحساس الصادق بلوعة الحب ، وحرقة الوجد، التى يشعر بها العاشقون ، وبذلك لا نستطيع أن نعده فى عداد الغزلين العاشقين ، ذلك لأن غزله « غزل المترفين الذين ينتقلون بين قلـوب الغانيات ، يصورون مشاعر طارئة أو مغامرات متكررة »(٩١) واذا كنا

---

(٩١) الشعر والشعراء فى العصر العباسى : ٧٥١ .

لا نلمس صدقا فى غزل ابراهيم ، فاننا لا نعدم فيه لطف تناول وحسن تعليل ودقة تصوير .

ومن شعره فى الغزل الذى يدل على حسن تعايله ودقة تصويره قوله :

وقائل(٩٢) لست بالمحب ولو
كنت محبا لذبت مذ زمن
فقلت قلبى مكاتم بدنى
حبى ، فاحب فيه مختزن
أحب قلبى وما درى بدنى
ولو درى لم يقم به السمن

وذلك(٩٣) أن ابراهيم بن المهدى قد دخل على أمير المؤمنين المأمون،وكان ابراهيم أثجل البطن،كثير اللحم والشحم،فقال له المأمون : بالله يا عم ، عشقت قط ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، وأنا الساعة عاشق ، قال : وأنت على هذه الجثة والشحم الكثير ! ثم أنشأ المأمون يقول :

وجه الذى يعشق معروف لأنه أصفر منحوف
ليس كمن أمسى له جثة كأنه الذبح معلوف

فأجابه ابراهيم بتلك الأبيات السابقة :

واذا كان العشاق يرون العشق حرقة قلب ، وهزال بدن ، واصفرار وجه ، فان ابراهيم يرى أن الانسان قد يكون محبا دون أن تعتريه

---

(٩٢) الظرف والظرفاء : ١٢٧ .
(٩٣) المصدر السابق : ١٢٦ .

هذه الأعراض ، ويعلل لذلك تعليلا لطيفا مع دقة تصوير ، وهو أن قلبه كتم حبه عن بدنه ، فلم يحس بدنه بشيء ، ولو علم بدنه ما فى قلبه لذاب وما بقى عليه لحم ولا شحم .

ولقد سلك ابراهيم فى حبه طريق الاخفاء والكتمان ـ مضطرا ـ ايثارا للسرية ، حتى يظل بمنأى عن أعين الرقباء ، وحتى يأمن أحاديث الوشاة والعذال ، وقد اتخذ للتعبير عن حبه وسائل أخرى : وسائل الحركة والاشارة بالعين ، وقد اتخذت حبيبته ـ كذلك ـ الاشارة بالعين تعبيرا عن حبها واشارة اليه ، يقول ابراهيم :

أشرت(٩٤) اليها : هل عرفت مودتى ؟
فردت بطرف العين انى على العهد
فحادت عن الاظهار عمدا لسرها
وحدت عن الاظهار أيضا على عمد

وحبيبته هذه حفيظة لسرها ـ كما هى حفيظة على عهدها ـ ولذا فهى لا تسمح لحبها أن يخلو بها أو يتكلم معها حتى وان جمعهما بيت واحد ، وهذا ما أثار دهشة ابراهيم وعجبه ! وما حديثهما ـ ان اجتمعا ـ الا حديث العيون الشاكية ، والأنفاس المتقطعة ، واشارة الأقواه المتعطشة ، وغمز الحواجب الواهمة ، وفتور الأجفان الواهية ، وتسليم الأكف المتعانقة .. انها حركات لا كلمات ! وتلميح لا تصريح ، انها لغة الحب الخفية التى تبغى الستر والكتمان ، يقول ابراهيم :

أليس(٩٥) عجيبا أن بيتا يضمنى
وايـاك لا نخلو ولا نتكلم !

---

(٩٤) المختار من قطب السرور : ٢٤٣ .
(٩٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

سـوى أعين تشكو الهـوى بجفونها
وتقطيـع أنفاس على النار تضرم !
اشـارة أفـواه وغمـز حـواجب
وتكسـير أجفـان وكف تسـلم !

ولعل ابراهيم قد عـرف منطق الحبيبة فى التكتم ، ورغبتهـا فى التستر ، فطوى هواه فى قلبه ، وكتم وجـده بين حناياه ، فى الوقت الذى تجرى فيه دموعه وجدا وصبابة ، يقول ابراهيم :

هذا(٩٦) محبك مطوى على كمده حرى مدامعه تجرى على كبده

ولذا نرى ابراهيم كثيرا ما يكنى عمن يحب ، قصدا الى التعميـة والاخفاء ، يقول ابراهيم :

أنا أفدى(٩٧) على الهجران زينـا
وان كنـا على عمـد كنينـا
وما زينـا بتفـدية أردنـا
ولكنـا عنينـا من عنينـا
أقـول وقد رأيت لها سـماء
من الهجـران مقبلـة الينـا
وقد سحت عـزاليها بصـد
حوالينـا الصـدود ولا علينا

وابراهيم كثيرا ما منى بالهجر والصد من قبـل صاحبته ، وكثيرا ما لقى البخل بالحب على الرغـم من سماحته به وبذله لها ، صـادقة

---

(٩٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٩٧) أشعار أولاد الخلفاء : ٣٤ .

به نفسه ، ولذا فهو يجأر بالشكوى الى الله من هذا البخل الذى منى به من قبل هذه الحبيبة ، وقد صور ابراهيم هذا المعنى فى صورة محسة رائعة ، يقول :

الى الله(٩٨) أشكو بخلها وسماحتى
لها عسل منى وتبذل علقما
فردى مصاب القتل أنت قتلته
ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما

وعلى الرغم من بخلها بالحب ، وضنها بالهوى ، فابراهيم ما فتىء يبذل لها الحب سخية به نفسه ، غير عابىء بلوم اللائمين وزجر الزاجرين ، وهو يكرر هذا البذل وذاك لسخاء معها مع علمه أن هذا خطأ منه ، ولكنه يعود ! انه الحب :

أضن(٩٩) باليلى وهى غير سخية
وتبخل ليلى بالهوى فأجود
وأنهى فلا ألوى الى زجر زاجر
وأعلم أنى مخطىء وأعود

وصاحبة ابراهيم تبذل له ـ أحيانا ـ القول لينا ، لينا يطعمه فى وصالها ، فاذا بوصالها أبعد ما يكون ، وقد وضع هذا المعنى فى صورة شعرية دقيقة معبرة أصدق تعبير عما يحس به وينفعل • يقول :

وقد تلين(١٠٠) ببعض القول تبذله
والوصل فى جبل صعب مراقيه

---

(٩٨) المختار من قطب السرور : ٢٤٣ ٠
(٩٩) المصدر السابق : ٢٤٦ ٠
(١٠٠) أشعار أولاد الخلفاء : ٣٩ ٠

كالخيزران منيعـا منـك مكسـره
وقـد يـرى لينـا في كف لاويه

واذا كانت بعض محبوبات ابراهيم قد منعنه وصـلا ، وأرهقنه أملا ، فان منهن من كانت تغار عليه ، لنظـره الى غيرها ، فيجيبهـا بدموع غزار انه يفديها بنفسه ، وهو ـ وان نظر الى غيرها ـ قـد قصر قلبه على حبها ، يقول ابراهيم :

قالت(١٠١) : نظرت الى غيرى فقلت لها
وسـائح الدمع من عينى محـدور :
نفسى فـداؤك طرف العـين مشـترك
والقلب منى عليـك الدهـر مقصـور
والعين تنظـر أحيـانا وباطنـه
ممـا يقـاسى بظهر الغـيب مسـتور

وكما تحدث ابراهيم عن الحب واوعته ، والهجر وحرقته ، وبخل الحبيبة وسماحته ، وعن كتمان حبه واخفائه .. تحـدث عمن يحبها ، راسما لها ومصورا ، فنجد فى بعض أشعاره الغزلية لقطات من أوصاف من يحب ، وهى لقطات صـورت بعض أعضائها التى تبدت فيها ـ فى نظـر ابراهيم ـ ملامح الجمـال وقسـمات الملاحة .. ففى بعض غزلياته نرى ابراهيم يشبه من يحبها بالغزال فى جمال العينين وسعتها، كما يسمها بجمـال الوجـه وحسن ملامحـه لدرجـة جعلت النـاس يحسدونه عليه ، يقول :

يا غزالا(١٠٢) لى اليـه شافع من مقلتيـه

---

(١٠١) وفيات الأعيان : ١/٣٩٠ ، المختار من قطب السرور : ٢٤١
(١٠٢) الأغانى : ١٠/١٤٣ ، أشـعار أولاد الخلفاء : ٢٠ ، المختار من قطب السرور : ٣٢٠ .

والذى أجـلت خديـ ـه فقبلت يديـه
بأبى وجهـك ما أكـ ثر حسـادى عليه
أنا ضـيف وجزاء الضـ يف احسـان اليه

كما وصفها بصباحة الوجه ولين القوام وطيب الرائحة ، وجمال العينين ، يقول ابراهيم :

يا هلالا(١٠٣) وصل اللـ ه به غصـنا رطيبا
كلمـا زدناك لحظـا زدتنا حسنا وطيبا
مرضـت أجفـان عينيـ ـك فأمرضت القلوبا
لست أبغى الشمس والبد ر اذا كنت قريبـا

وقد وضع ابراهيم هذه الأوصاف فى صور شعرية متألقة تسرى فيها روح العشق فازدادت بها اشراقا ، وقد اختار لها الألفاظ العذبة المأخذ ، الرقيقة الايقاع ، بالاضافة الى ما اشتملت عليه من بديعيات كالجناس ، والطباق .

وما أشبه قول ابراهيم :

كلمـا زدناك لحظـا زدتنـا حسنا وطيبـا

بقول الشاعر :

يزيدك وجهه حسنا اذا ما زدته نظرا

ووصف الحبيبة بجمال القوام وحسن العيون معنى ردده ابراهيم فى غزله ، يقول ابراهيم :

هيف(١٠٤) الخصور قواصد(١٠٥) النبل
تقتلنـا بنـواظر نجـل

---

(١٠٣) المختار من قطب السرور : ٢٤٤ .
(١٠٤) أشعار أولاد الخلفاء : ٤٤ .
(١٠٥) أقصد السهم : أصاب فقتل مكانه .

كحـــل الجمـــال جفـــون أعينها
فغنـــين عن كحـــل بلا كحـــل

وقد وضع الشـــاعر هذه المعانى فى صـــور خيالية جميلة فجعـــل لنظراتها فعل السهام القاتلة التى تصيب الهدف مكانه ، لأن العيـــون الصادرة عنها عيون قاتلة ، وهى قاتلة لأنها جميلة ساحرة ، قد كحـــل الجمال جفونها ، فهى ليست فى حاجة الى كحل حقيقى ، لأن جمالهـــا أغناها عن ذلك .

ولم يفت ابراهيم أن يصف صاحبته بطيب نكهة فمها ، بل جعـــل ريقها شهدا . وطيب نكهة فمها لا يعادله طيب مذاق الخمر الجيـــدة ، يقـــول :

فما مـــزة(١٠٦) قهـــوة قرقف
شـــمول تـــروق براوورقهـــا
بكف أغـــن خضـــيب البنـــا
ن يخطـــر بـــين أباريقهـــا
مريش الجفـــون بنبـــل العيـــو
ن يـــرمى بأمكـــن تفـــويقها
بأطيـــب مـــن فمهـــا نكهـــة
اذا امتصت الشـــهد من ريقها

هذه صور ولوحات من غزل ابراهيم الذى صـــور به أحاسيسه وانفعالاته ، وقد حوى غزل ابراهيم الحديث عن الحب ولوعته،وكتمانه واخفائه ، والهجر وحرقته ، وسماحته هو بحبه ، وبخل حبيبته به ،

---

(١٠٦) المختار من قطب السرور : ٢٤٧ .

كما حوى أوصافا ان يحبها ، فوصف جمال عينيها وصباحة وجهها ، ولين قوامها ، وطيب مذاق فمها .

وقد أعجبنا غزل ابراهيم بصوغه ، وأطربنا بصورته ، ون بدا عليه تصنع العاطفة ، وضعف حرارتها .

(ه) شعره فى الوصف والتشبيهات :

لم يخل شعر ابراهيم ــ وهو يحلق فى سماء الشعر ــ من أوصاف دقيقة وتشبيهات بديعة ، وان كانت قليلة ، وهى تعطينا صورة وانطباعا لشاعريته التى طرقت أكثر فنون الشعر العربى ، وهذا يدل على ملكته الشعرية المتدفقة .

ومن أوصافه وتشبيهاته قوله فى باقة نرجس :

ثلاث(١٠٧) عيون من النرجس على قائم أخضر أملس
يذكرننى طيب ريا الحبيب فيمنعننى لذة المجلس

انها صورة بديعة رسمها ابراهيم لباقةالنرجس ، وقد مزج هذه الصورة بصورة غزلية رقيقةحين ذكرته رائحة النرجس برائحة الحبيب الطيبة ، وحين تذكر رائحته ، اشتاق اليه ، وشغل به ، وقد حال ذلك الاشتياق اليه والشغل به دون الاستمتاع بلذة المجلس الذى يحضره ، وهذا المعنى ــ لاشك ــ بديع طريف .

ومن تشبيهاته(١٠٨) قوله فى الغمامة ــ وقد شبهها بالعقاب :

ان كنت تنشط للصبوح فانه يوم أغر محجل الأطراف
وأرى الغمامة كالعقاب محلقا مسودة الأوساط والأكناف

---

(١٠٧) الأغانى : ١٠/١٢٢ ، المختار من قطب السرور : ٢٤٩ .
(١٠٨) أشعار أولاد الخلفاء : ٣٥ .

طـورا تبلك بالرذاذ وتارة تهمى عليك بدلوها الغـراف
فانعم صباحا وائتنا متفضلا ودع الخلاففليس يوم خلاف

فهو هنا يصور الغمامة فى سواد وسطها وأطرافها بالعقاب المحلق فى السـماء ، وقـد ألقت رذاذها الخفيف تارة ، ووابلها الشديد تارة أخرى ، وقد جمل هذه الصورة وجعلهـا تتألق ذلكم التشخيص الذى أضفاه الشاعر على هذه الصورة ، حيث جعل للغمامة دلوا غرافا ... انها صورة جميلة ، لأنها منتزعة من الطبيعة الساحرة .

ومن أوصافه قوله فى وصف المشيب :

اذا سال(١٠٩) وادى الشيب فى مفرق الفتى
وقنـع منـه عمـة المتلثم
فيا قبـح ما تحكى المـراة لعينـه
ويا بعـده من كـل عيش ومنعم

فقد وصف الشاعر الشيب وقد غزا رأس الانسان واعتلى مفرقه بالمياه الدافقة التى تهبط الوادى فتغطيه حتى كأنه يسيل وقـد أودع هذا الوصف فى صورة خيـالية تشخيصية رائعة ، حين جعـل للشيب واديا يسيل ، وذلك مبالغة فى تدفق الشيب على مفرقه ورأسه ، حتى صار كالقنـاع الذى تغطى به عمة المتلثم .. وقـد بين الشاعر مدى كراهية الانسان لهذا المشيب الذى غزاه ، وبخاصة حين يقف أمـام المرآة . ان هذه الصورة تتبدى له فى المرآة كريهة قبيحة ، بل ما أقبحها من صورة ، وما أبعد صاحبها من كل عيش رغيد وحياة لذيذة !

(و) شعره والرثاء :

حكم القدر على ابراهيم أن يفجع فى أعز انسان لديه : فى ابنـه

---

(١٠٩) أشعار أولا الخلفاء : ٤٠ .

« أحمد » ــ أكبر ولده ــ ، وأن يتجــرع غصص فراقــه ، ويذوق مرارة فقده ، وأن يلهبه الحزن بسوطه والثكل بسيفه ، فراح يترنح أمام الضربات القاتلة ، ويتهالك أمام الطعنات النافذة ، كما راح يعبر ــ فى أسى وحزن ــ عن فجيعته ، وعن حزنه فى أبيات حزينة آسية مبللة بدموع الفقد ، ومتشحة بسواد الثكل .. يقول ابراهيم :

نأى(١١٠) آخر الأيام عنك حبيب
فللعين ســح دائــم وغــــروب
يؤوب الى أوطـــانه كل غــائب
وأحمــد فى الغيــاب ليس يــؤوب
تبـــدل دارا غــير دارى وجــيرة
ســواى وأحــداث الزمان تنوب
أقام بهـــا مســـتوطنا غير انــه
على طــول أيام المقــام غــريب
وكان نصــيب العــين من كل لــذة
فأمسى وما للعــين فيه نصـــيب
كأن لم يكن كالغصن فى ميعة الضحى
زهاه النــدى فاهتز وهــو رطيب
كأن لم يكن كالصقر أوفى بشامخ الـ
ــذرى وهو يقظان الفؤاد طلــوب
كأن لم يكن كالرمح يعــدل صدره
غــداة الطعان لهــذم وكعــوب
يفض الحديد المحكم النسج حده
ويبدو وراء القـــرن وهو خضيب

---

(١١٠) المصدر السابق : ٤٤ ــ ٤٥ .

وريحـــان قلبى كان حـــين أشـــمه
ومؤنس قصرى كان حـــــين أغيب
كأنى منـــه كنت فى نـــــوم حـــالم
نفى لذة الأحـــــلام عنه هبـــوب
جمعت أطبـــــاء العراق فلم يصب
دواءك منهم فى البـــــلاد طبيب
ولم يملك الآســـــون نفعا لمهجة
عليهـــا لأشراك المنـــــون رقيب
وانى وان قـــدمت قبلى لعـــــالم
بأنى وان أخـــرت منك قـــريب
وان صـــباحا نلتقى فى مســـــائه
صـــباح الى قلبى الغـــداة حبيب

فى هذه المرثية يصرخ الشاعر من أعماقه ، ويبكى من قلبه ، وقـــد جاءت صرخاته قوية ، وبكاؤه صادقا ، لأنه صدر عن عاطفة أب،فجع فى أعز ما لديه : فى ولده الأكبر ، فهز الفقـــد كيـــانه ، وزلزل الثكل أركانه،وهدم أعصابه ، وحطم جسده • وقد راح الشاعر يعبر عن حزنه، ويترجم عن أســـفه وأساه فى أبيات تقطر أسى ، وحـــزنا ، ولوعـــة ، وفيها يتألم الشاعر لفقد ابنه حبيبه الذى نأى عنـــه الى غير رجعة ، فالعين ـــ لفقده ـــ لا يرقأ لها دمـــع ولا يجف لها جفن •• والشاعر يبدى تحسره وحزنه لأن ابنه الغائب لن يعود من غيبته بينما كل غائب يعود الى وطنه ، فما بال ابنه لا يؤوب ؟!

ويسترسل الشاعر فى أفكاره ويعلن أن ابنه قد استبدل بداره دارا أخرى واختار جيرانا غيره ، وقد أقام بها متخذا هذه الدار وطنا ، وقد أمسى بهذه الدار غريبا على الرغم من طول مقامه بها •

وقد كان ابنه قرة عينه ، ففقدت العين ــ بفقده ــ كل نصيب فى البهجــة والفرح ! وقد اختطفــه الموت وهو فى ريعان الصبا وعنفوان الشباب ، تتوهج فى أعضائه فورة الشباب ونضارته،فكان كالغصن وقت الضحى وقد تألق على جبينه الندى فاهتز عجبا واختيالا ، وهو غض رطيب •

وكان فى حياته بطلا شجاعا ، مقــداما مغوارا ، يضرب الأعــداء برمحه وســيفه فيفض الحديد المحكم الذى تسربل به عدوه ، وقد بدا وراء خصمه وندہ وهو مخضب بدمائه •• ولقد كان ابنه هذا ريحانة قلبه التى كان يشمها ، كما كان مؤنس قصره حين كان يغيب عنــه ! وقد أفاق الشاعر من أفكاره هذه واسترساله فيها حتى بدا وكأنه فى حلم لذيذ أفقده استيقاظه من النوم •

ثم يبين الشــاعر أنه لم يدخر وســعا ولم يألجهدا فى ســبيل تطبيبه وعلاجه ، حيث جمع له أطباء العراق ، فلم يوفق أحــد منهم فى كشف دائه والوقوف على دوائه ، كما لم يملك من أحزنهم مرضــه وآلمهم داؤه نفعا لنفسه التى حلق فوقها الموت •

ثم ينعى الشاعر نفســه ، وأنه سيلحق بابنه بعد زمن قليل ، وان كان ابنه قد سبقه الى العالم الآخر ، فانه عما قريب سيلحق به •

وهكذا نشعر بصدق الحزن ، وشــدة الثكل اللذين أثقلا كاهــل الشاعر ، لفقد ابنه الأثير الى نفسه العــزيز على قلبه ، فأفقده فقــده الأنس والبهجة ، والفرحة والبسمة ، واستبدل بهذا كله الألم والحسرة والأسى الشديد •

(ز) شعره والحكمة :

مرت بابراهيم بن المهــدى تجارب وأحداث ، وشــاهد منعطفات وتغيرات ، ورأى الكثير من أخلاق الدنيا والناس وتعرف على أنماط من البشر بسلوكياتهم وأنمــاط حياتهم المختلفــة ، فلونت هــذه المرائى

والمشاهد كثيرا من الأفكار التى تبلورت فى ذهنه الى ما يشبه النظرات الثابتة التى لا يختلف عليها اثنان ، وقد صاغ هذه الأفكـــار فى قالب أشبه ما يكون بقالب الحكمة والموعظة .

ويعنى هذا أن ابراهيم قد انتهى به المطاف ، كما انتهى بغيره من معاصريه باصطناع الحكمـــة أو باعتناقها مبدأ وســـبيلا . لقـــد انتهى اليها كل شعراء زمانه تقريبا وعاش فى رحابها بداية ونهاية كالعتـــابى والخريمى ومحمود الوراق .

ولابراهيم تأملات ونظـــرات أشـــبه بالحكم الصائبة والأقـــوال السديدة ، النافذة الى كثير من شئون الناس والحياة .. فله نظرات فى الدنيا وتقلباتها ، وفى غدر الأصحاب وتنكرهم ، وفى الانتباه لغدرات الزمان ، وفى الحرص والطمع ، وفى الغيبـــة والنميمة ، وفى الكف عن اللهو والباطل ، وفى فضل السكوت ، وفى ذم الاحتجاب ، وفى التقليل من زيارات الأصدقاء .. وغير ذلك من النصائح والحكم التى صـــاغها ابراهيم فى أسلوب ارشادى ناصح أمين .

ومن نظرات ابراهيم حديثه عن تقلبات الدهر وغدراته ـــ وقد دخل اليه محمد بن راشد وتجاريا ذكر الدول ـــ وذلك فى قوله :

فلله(١١١) نفسى ان فى لعبـــرة
وللدهر نقض للقوى بعد ابرام
غدوت على الدنيا مليكا مســـلطا
ورحت وما أحوى بها قبس ابهام

ولغدرت الزمان فى قلب ابراهيم جرح لا يندمل ، ولذلك ما فتىء

---

(١١١) أشعار أولاد الخلفاء : ٢١ ـ ٢٢ .

ابراهيم يتحدث عن الزمان وغدراته وما يقضيه فى الناس ، حيث لا حول لهم ولا قوة ازاء صروفه وأحداثه يقول :

اذا(١١٢) الليل أسبل سربال‌ه
على الأرض واسود وجه البلد
رعيت الكواكب حتى الصبا
ح ودمعى كاللؤلؤ المنسرد
فمن ظالعات ومن غائرات
وآخر فى حيرة قد رقد
ومن ضاجعات بأفق المغيب
يراقبها كارتقاب الرصد
وما الناس الا عدو الشقى
والا صديق امرىء قد سعد
اذا ما الزمان بأخلافه
طواك كطى الثياب الجدد
يفيض عليك قداح الردى
لتأخذ منها بقدح نكد
فما أنت الا أسير له
وان أمكن الحيد عنه فحد
هب الدهر لم يتحامل على
سواك فهل لك منه القود
وان يسقك اليوم من آجن
صرى لا يذاق ولا يزدرد
فقد كان يسقيك من صفوه
نطاف الغوادى بذوب الشهد

---

(١١٢) المصدر السابق : ٣٩ ـ ٤٠ .

كذاك تجىء صـــروف الزمـا
ن عـلى ما أردت وما لـم ترد
وقد يسبق الفـوت وشك العجو
ل ويـدرك حاجتـه المتئـد
وان خلـط الدهر فاصـبر على
تلـونه فمـع اليـوم غد

ولقد ابتلى ابراهيم بتنكر الأصدقاء وغدرات الأحباب ، ولم يعد معه فى محنته التى مر بها منهم أحـد ، وقد كانوا معه كثـيرين وقت الرخـاء والسعة ،فأصـبح ، وكأنه لم يكن يدخـر منهم لهذا الوقت الا الغرور والأمانى الكاذبة ، وهو الذى أسدى اليهم أياديه البيضـاء ونعمه السابقة ، وكأنه أصبح لا يوجد فى دنيا الناس من يشكر النعمة، ويعترف بالجميل ، يقول ابراهيم :

تحامانى(١١٣) الصديق وغاب عنى
ثقـات صنائعى وهم حضـور
وقلوا فى البـلاد وكان عهـدى
بهم زمن الرخـاء وهـم كثـير
فلم يك فى يـدى منهم ومما
ذخرتهم لـه الا الغـرور
أيا عجبـا ! أما فى النـاس ممن
تقلـد نعمتى رجـل شـكور ؟

أما الحرص على الدنيا والطمع فيها ، فقد رأى فيه ابراهيم عجبا : رأى الناس يتهالكون على الدنيا ويتصارعون فى سبيلها ، بل يظلون فى

---

(١١٣) المصدر السابق : ٤١ .

حرص حتى آخر نفس فى حياتهم ٠٠ وهم فى نهم مستمر لا يرضون فى متاعها بقليل أو كثير ٠٠ مع أن العاقل لو تدبر لعلم أن الأرزاق فى الدنيا لا تجرى على مقادير السعى والجرى وراءها ، بل تجرى بمقادير قدرها الله وقررها وانها لا تخضع لقانون ، ولا تسرى على منهج ، فقد يرزق الله المال الوفير من لم تتعب فيه نفسه ، وقد يحرم هذا المال من ضرب اليه أكباد الابل ٠ ثم ما بال الناس يتهالكون على المال ويحرصون عليه كل هذا الحرص مع أنه الى فناء وزوال ؟! يقول ابراهيم :

قد شاب(١١٤) رأسى ورأس الحرص لم يشب
ان الحريص على الدنيا لفى تعب
مالى أرانى اذا طالبت مرتبة
فنلتها طمحت عينى الى رتب ؟
قد ينبغى لى مع ما حزت من أدب
أن لا أخوض فى أمر ينقص بى
لو كان يصدقنى فهمى بفكرته
ما اشتد غمى على الدنيا ولا نصبى
أسعى وأجهد فيما لست أدركه
والموت يكدح فى زندى وفى عصبى
بالله ربك كم بيتا مررت به
قد كان يعمر باللذات والطرب
طارت عقاب المنايا فى جوانبه
فصار من بعدها للويل والحرب
فامسك عنانك لا تجنح به ظلع
فلا وعيشك ما الأرزاق بالطلب

---

(١١٤) تاريخ بغداد : ٦/١٤٧ ٠

قد يرزق العبد لم تتعب رواحله
ويحرم الرزق من لم يوءت من طلب
مع أننى واجد فى الناس واحدة
الرزق والنوك مقرونان فى سبب
وخصلة ليس فيها من ينازعنى
الرزق أروغ شىء عن ذوى الأدب
يا ثاقب الفكر كم أبصرت ذا حمق
الرزق أغرى به من لازم الجرب

وعن بعض أخلاقيات الناس وسلوكياتهم يحدثنا ابراهيم عن خصلة قبيحة من خصالهم ، وعن عادة مرذولة من عاداتهم ، وهى خصلة الغيبة ، وعادة النميمة ، والغيبة والنميمة خصلتان قبيحتان نهى عنهما الاسلام لما تجلبانه على المجتمع الاسلامى من شر ووبال .. ذلك لأن المغتاب يقع فى عرض أخيه ، والذى وقع فيه الاغتياب يرد على من اغتابه ، فتضرم بينهما ـ بذلك ـ نيران العداوة والبغضاء .. أما النمام الذى يسعى بين الناس بالافساد والشر ، فلا يتورع عن أن يلحق أذاه بكل الناس حتى الأصدقاء .. بل قد صور ابراهيم ما يقوم به بالسعى بين الناس بالافساد بنمه ووشايته بلدغ العقارب والأفاعى ، وهى ـ لاشك ـ صورة دقيقة ، لأن لدغها يتم فى الخفاء ودون أن تشعر بها من أى جانب أتتك ، وكذلك النمام فهو يشى بين الناس فى الخفاء بعيدا عن أعينهم ، وعن هذه المعانى يقول ابراهيم :

من قال(١١٥) فى الناس قالوا فيه ما فيه
وحسبه ذاك من خزى ويكفيه

---

(١١٥) أشعار أولاد الخلفاء : ٣٣ ـ ٣٤ .

من نم فى النـــاس لم تؤمن عقـــاربه
عن الصـــديق ولم تؤمـــن أفاعيـــه
كالســـيل يجرى ولا يـــدرى به أحـــد
من أين جـــاء ولا من أين يأتيـــه

وعن فضيلة الصمت يحـدثنا ابراهيم مبينا أن الصـمت فضيلة ومحمدة ، وأنه يعجب كل العقلاء ، وانه سلامة من الوقوع فى الخطأ، فربما جر الكلام الخطأ ، وأوقع فى الشر ، وزرع العداوة والبغضـاء بين الناس ، يقول ابراهيم :

ان كان(١١٦) يعجبك الســكوت فانه
قـــد كان يعجب قبـــلك الأخيـــارا
ولئن ندمت عـــلى ســـكوتك مرة
فلقـــد ندمت على الكـــلام مـــرارا
ان الســـكوت ســـلامة ولربمـــا
زرع الكـــلام عـــداوة وضـــرارا

أما الاكثار من زيارة الأحباب ، ومداومة غشيانهم ، فان ابراهيم يراه مجلبة للكراهية والاستثقال والازورار • ومن الخير ــ حفظا على ابقاء المودة ، واســتمرار المحبة ــ الاقلال منها ، والاغبـــاب فيها ، وفى ذلك يقول ابراهيم :

انى كثرت(١١٧) عليـــه فى زيارته
والشىء مســـتثقل جدا اذا كثرا
وابنى منـــه أنى لا أزال أرى
فى طرفه قصرا عنى اذا نظـــرا

---

(١١٦) الظرف والظرفاء : ٤٤ •
(١١٧) المصدر السابق : ٨٧ •

— ٥ —

ابراهيم بن المهدى والنثر الفنى :

يعد ابراهيم بن المهدى واحدا من ألمع الأدباء الفصحاء والكتاب البلغاء ، فقد جمع الى حذقه فى الموسيقا والغناء ، ومهارته فى الشعر وتصرفه فيه — جمع الى هذا وذاك مقدرة فائقة وموهبة فذة فى النثر الفنى ، العالى القدر السامى المنزلة ، الجامع بين الفصاحة والبلاغة ، والدال على امتلاكه لناصية البيان •

وله فى النثر الفنى فصول حسان ومكاتبات ملاح ، فى جوانب متعددة : فى الاستعطاف ، والاخوانيات ، والمناظرة ، وقد أجاد فيها جميعا وأبدع ، وضرب فيها بسهم وافر ، وأصاب القدح المعلى ، ودلل فيها على حضور بديهته ، وتمكنه من الاجابة المحكمة ، وقدرته الفائقة على التأثير والاقناع •

ومن استعطافاته النثرية ماقاله بين يدى الخليفة المأمون ، وقد استدعاه من السجن مشدودا بالسلاسل والاغلال ، ومما قاله : «يا أمير المؤمنين ولى الثأر محكم فى القصاص ، ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرخاء أمن عادية الدهر ، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك ، فان تأخذ فبحقك ، وان تعف فبفضلك ، ثم قال :

ذنبى اليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا ... فاصفح بفضلك عنه
ان لم أكن فى فعالى ... من الكرام فكنه

فقال المأمون : « القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وعفو الله بينهما ، وهو أكبر ما يحاول ، يا ابراهيم ، لقد حببت الى العفو

حتى خفت ألا أوجر عليه ، لا تثريب عليك ، يغفر الله لك وعفا عنه وأمر برد ماله وضياعه »(١١٨) .

ولننظر فى هذا الاستعطاف المزدان بصور الجمال الفنى الذى عزف به ابراهيم على أوتار البلاغة بتلك القوة والعبقرية التى كان يرسل بها أنغامه وألحانه ، والتى استطاع بها أن ينتزع من قلب المأمون عفوه وصفوه ، ويحول غضبه الثائر الى رضا ، بل الى أكثر من الرضا .. الى الفيض والاغداق والتكريم .

ومعرفة ابراهيم بالرواية والأخبار والأيام جعلته ذا قدرة على الاستدلال وبصيرة بوسائل التأثير ، وبخاصة فى استعطافاته بين يدى الخليفة المأمون ، يدل على ذلك ما ذكره الخطيب البغدادى : أن ابراهيم ابن المهدى حين وقف بين يدى المأمون ، قال فيما قاله : « قد حضرت أبى — وهو جدك — وأتى برجل وكان جرمه أعظم من جرمى فأمر بقتله ، وعنده المبارك بن فضالة ، فقال المبارك : ان رأى أمير المؤمنين أن يستأنى فى أمر هذا الرجل ، حتى أحدثه بحديث سمعته من الحسن ، قال : ايه يا مبارك ، فقال : حدثنا الحسن عن عمران بن الحصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش : ألا ليقومن العافون من الخلفاء الى أكرم الجزاء ، فلا يقوم الا من عفا » فقال الخليفة : ايها يا مبارك قد قبلت الحديث بقبوله وعفوت عنه »(١١٩) .

فتغرغرت عينا المأمون بالدموع ، ثم قال : يا ثمامة ان الكلام كلام الدر ، يا غلمان حلوا عن عمى ، وغيروا من حالته فى أسرع وقت وجيئونى به .

---

(١١٨) أمالى القالى : ١٩٩/١ .

(١١٩) تاريخ بغداد : ١٤٥/٦ .

وقد جمع ابراهيم الى مقدرته على الاستدلال وبصره بوسائل التأثير ـ مقدرة فائقة على المحاورة والمناظرة ، لدرجة تجعل خصمه يقتنع بما يقوله ، ويؤيد ما يذهب اليه .. من ذلك ما يروى أنه « لما أدخل ابراهيم بن المهدى على المأمون ، وقد ظفر به كلمه ابراهيم بكلام كان سعيد بن العاص كلم به معاوية بن أبى سفيان ، فى سخطة سخطها عليه ، واستعطفه به ، وكان المأمون يحفظ الكلام ، فقال له المأمون : هيهات يا ابراهيم : هذا كلام سبقك به فحل بنى العاص بن أمية وقارحهم سعيد بن العاص وخاطب به معاوية ، فقال له ابراهيم : مه يا أمير المؤمنين ؟! وأنت أيضا ان عفوت فقد سبقك فحل بنى حرب وقارحهم الى العفو ، فلا تكن حالى عندك فى ذلك أبعد من حال سعيد عند معاوية ، فانك أشرف منه ، وأنا أشرف من سعيد ، وأنا أقرب اليك من سعيد الى معاوية ، وان أعظم الهجنة أن تسبق أمية هاشما الى مكرمة ، فقال : صدقت يا عم ، وقد عفوت عنك »(١٢٠) .

ومن كلامه الذى يدل على حسن أدبه مع بلاغته وفصاحته ، وقوة منطقه ، وجميل أدبه ، ما روى أن « ابراهيم بن المهدى تنازع وابن بختيشوع الطبيب بين يدى أحمد بن أبى داود فى مجلس الحكم فى عقار بناحية السواد ، فأربى عليه ابراهيم وأغلظ له ، فأحفظ ذلك ابن أبى داود ، فقال : يا ابراهيم ، اذا نازعت فى مجلس الحكم بحضرتنا امرأ فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتا ، ولا أشرت بيد ، وليكن قصدك أمما ، وريحك ساكنة ، وكلامك معتدلا ، مع وفاء مجالس الخليفة حقوقها من التعظيم والتوقير والاستكانة ، والتوجه الى الواجب ، فان ذلك أشكل بك ، وأشمل لمذهبك فى محتدك ، وعظيم خطرك ، ولا تعجلن ، فرب عجلة تهب ريثا ، والله يعصمك من خطل القول والعمل ، ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل ، ان ربك حكيم عليم .

---

(١٢٠) الأغانى : ١٠/١٣١ .

فقال ابراهيم : « أصلحك الله تعالى ، أمرت بسداد ، وحضضت على رشـــاد ، ولست عائدا لما يثلم مروءتى عنـــدك ، ويسقطنى من عينك ، ويخرجنى من مقدار الواجب الى الاعتذار ، فها أنا معتذر اليك من هذه البادرة اعتذار مقر بذنبه ، معترف بجرمه ، ولا يزال الغضب يستفزنى بمواده ، فيردنى مثلك بحلمه ، وتلك عادة الله عندك وعنـــدنا منك ، وقد جعلت حقى من هذا العقار لابن بختيشوع ، فأيت ذلك يكون وافيا بأرش الجناية عليه ، ولم يتلف مال أفاد موعظة ، وحســـبنا الله ونعم الوكيل »(١٢١) .

ومن اخوانياته ما كتبه الى اسحاق بن ابراهيم الموصلى يدعوه ، وفى كتابه اليه يقول :

« فى حضورك شيان : أنس لك ، وسرور لنا ، وفى غيبتك شيئان : وحشـــة لك ، وغم لنا ، وعندنا راح أرق من طبعك ، وأطيب من ذكرك وغناء أرق من زورة حبيب ، فى غفلة رقيب ، ونحن منتظروك ، فشفع فينا الفتوة ، وأسرع الينا الاجابة »(١٢٢) .

والكتاب فيه من اللطافة والرقة ما يدل عـــلى تمازج الأرواح ، وائتلاف القلوب ، وقد استخدم لها أعـــذب لفظ ، وألطف معنى ، مع روعة الجمل وحسن تقسيمها ، واتساق فواصلها ، مع الايجاز والتركيز المطلـــوب فى رسائل الشوق ، وما يجرى مجراه .. ذلك لأن الاطناب يستغرق جزءا كبيرا من الكتاب ، فيمل ويضجر ، وينتظم فى سلك الملق والتكلف اللذين لا يعتادهما المتصافون من الأصدقاء(١٢٣) .

---

(١٢١) زهر الآداب : ١/٢٥٠ ، العقد الفريد : ١/٨٥ .
(١٢٢) المختار من قطب السرور : ٤٣٤ .
(١٢٣) صبح الأعشى : ٩/١٤٢ .

ونختم حديثنا عن نثر ابراهيم بهذه الفقرة التى تحدث فيها عن الصبر ، وعما ينبغى على المرء حينما تقع عليه مصيبة أو يلم به خطب ، من الصبر المحتسب والرضا الجميل ، والتسليم المؤمن بقضاء الله ، وعدم الركون الى اليأس والجزع والصبر المتأخر ، لئلا يفقد المصاب ثواب الصابرين ... الخ .

يقول ابراهيم : « أما الصبر فمصير كل ذى مصيبة ، غير أن الحازم يقدم ذلك عند اللوعة ، طلبا للمثوبة ، والعاجز يؤخر ذلك الى السلوة ، فيكون مغبونا نصيب الصابرين ، ولو أن الثواب الذى جعل الله لنا على الصبر كان على الجزع ، لكان ذلك أثقل علينا ، لأن جزع الانسان قليل وصبره طويل ، والصبر فى أوانه أيسر مؤونة من الجزع بعد السلوة ، ومع هذا فان سبيلنا من أنفسنا على ما ملكنا الله منها أن لا نقول ولا نفعل ما كان لله مسخطا ، فأما ما يملكه الله من حسن عزاء النفس ، فلا نملكه من أنفسنا »(١٢٤) .

الدكتور / محمد عارف محمود حسين
أستاذ الأدب والنقد المساعد فى كلية اللغة العربية بالمنوفية

---

(١٢٤) أشعار أولاد الخلفاء : ٣٦ .

مراجع البحث

١ ـ اسحاق الموصلى : الموسيقار النديم • للدكتور : محمود أحمد الحفنى (سلسلة أعلام العرب ١٩٦٤م) •

٢ ـ أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى (دار المسيرة ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٢) •

٣ ـ الأعلام ، لخير الدين الزركلى (دار العلم للملايين • بيروت ـ الطبعة السابعة ١٩٨٦) •

٤ ـ الأغانى ، لأبى الفرج الأصفهانى (دار الثقافة • بيروت ـ الطبعة السادسة ١٩٨٣) •

٥ ـ الأمالى ، لأبى على القالى (دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٠) •

٦ ـ تاريخ بغداد ، لأبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى (دار الكتب العلمية • بيروت) •

٧ ـ تاريخ الرسل والملوك ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم (دار المعارف ـ الطبعة الرابعة)

٨ ـ جمهرة أنساب العرب ، لأبى محمد على بن أحمد بن حزم الأندلسى تحقيق عبد السلام هارون (دار المعارف ـ الطبعة الرابعة) •

٩ ـ الزهرة ، لأبى بكر محمد بن داود الأصبهانى ، تحقيق ابراهيم السامرائى (مكتبة المنار • الأردن ـ الطبعة الثانية ١٩٨٥) •

١٠ ـ زهر الآداب ، لأبى اسحاق الحصرى ، تحقيق زكى مبارك (دار الجيل • بيروت ـ الطبعة الرابعة) •

١١ ـ الشعر والشعراء فى العصر العباسى ، للدكتور مصطفى الشكعة (دار العلم للملايين • بيروت ـ الطبعة السادسة ١٩٨٦) •

١٢ ـ صبح الأعشى ، للقلقشندى (المطبعة الأميرية) •

١٣ ـ الظرف والظرفاء ، لأبى الطيب محمد بن أحمد الوشاء ، تحقيق فهمى سعد (عالم الكتب بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٨٥) ٠

١٤ ـ العقـد الفريد ، لأبى عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسى ، تحقيق أحمد أمين وزميليه (دار الكتاب العربى ٠ بيروت ١٩٨٣) ٠

١٥ ـ العمدة ، لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد (دار الجيل ٠ بيروت ـ الطبعة الخامسة ١٩٨١) ٠

١٦ ـ الفهرست ، لابن النديم ، تحقيق رضا ـ تجدد ٠

١٧ ـ المختار من قطب السرور للرقيق القيروانى ، اختيار على نور الدين المسعودى ، تحقيق عبد الحفيظ منصور (مؤسسات عبد الكريم عبد الله ـ تونس) ٠

١٨ ـ مروان بن أبى حفصة : شاعريته وشعره ، للدكتور محمد عارف محمود حسين (مطبعة الأمانة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٨٣)

١٩ ـ المعارف ، لأبى محمد عبد الله بن مسلم (ابن قتيبة) ، تحقيق الدكتور : ثروت عكاشة (دار المعارف ـ الطبعة الثانية) ٠

٢٠ ـ معجم البلدان ، لياقوت الحموى (دار صادر ٠ بيروت ـ ١٩٧٩) ٠

٢١ ـ من الضائع من معجم الشعراء ، للمرزبانى ، للدكتور : ابراهيم السامرائى (مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٨٤)

٢٢ ـ نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر (مطبعـة الجوائب بالقسـطنطينية سنة ١٣٠٢هـ) ٠

٢٣ ـ وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، تحقيق الدكتور : احسـان عباس (دار الثقافة ٠ بيروت) ٠